كتاب الجليس الصالح الكافي والانيس الناصح الشافي

لأبي الفرج المعافى بن زكريا الجريري النهرواني

الدكتور سيد أحمد حسيني

العلماء و المحققون يسعون دائماً لاحياء الآثار ـ الخطية للعلماء المتقدمين الموجودة فى معظم مكتبات العالم و بعد ذلك يقدمون ثمرة جهودهم إلى ناهلى العلم فى هذا المجال . و فى مساعيهم هذه سيؤدون ديونهم اتجاه ـ الحضارة الانسانية أولاً و يحفظون الآثار النفيسة التى بذل العلماء المتقدمون جهوداً جباراً فى تأليفها من الضياع ثانياً و بالتالى سيخلدون اسماء هؤلاء العلماء و مؤلفاتهم . و من بين هؤلاء المحققين « الأستاذ الجليل و العالم النحرير العلامة البروفسور مختار الدين أحمد » رئيس قسم اللغة العربية و آدابها فى الجامعة الاسلامية بعليكره فى الهند الذى حصل على عاتقه لواء هذه الخدمة الانسانية « و اشتغل فى تحقيق كثير من الآثار العلمية و الأدبية للعلماء الماضيين » و بالاضافة إلى ذلك فهو يشجع طلابه دوماً على انتهاج ـ هذه السيرة المرضية .

و لما مكنتنى الله تعالى ان ارحل إلى الهند بغية مواصلة ـ دراساتى فى آداب اللغة العربية تحت اشرافه « فأول ـ ما طلب منى أن يكون موضوع رسالتى الدكتوراة التحقيق حول ـ قسم من كتاب (الجليس

الصالح الكافى و الانيس الناصح الشافى) ، الذى يعد من الكتب المهمة فى مجالات الأدب و الاخلاق و الاجتماع و المذهب ، و سيأتى البحث منه و من مؤلفه ، فسرعان ما تقبلت ذلك شاكراً اياه بكل شوق و رغبة ، و شرعت فيه و الذى تقرؤه الآن أيها القارىء العزيز هو عصارة ذهنى و نتيجة ضائى فى غضون بضع سنوات متوالية ، و رجائى من الله القدير أن تكون نتيجة هذه المتاعب مقبولة لديه . و مما يجدر الاشارة إليه هو ان اقدم جزيل شكرى إلى ـ أستاذنا الجليل الذى ارشدنا إلى كيفية تحقيق هذا الكتب ، و هو لا يزال مراقباً هذه الجهود بعينه الناقدة ، و قد استفدنا من آرائه الصائبة وتعاليمه المثمرة و أخيراً ارجو من الله العلى القدير دوام صحته و طول عصره فى خدمة الاسلام و احياء تراثه و الحمد لله الذى هدانا لهذا و ما كنا لنهتدى لو لا ان هدانا الله و صلى الله على خيرخلقه محمد و على آله المعصومين و أصحابه المنتجبين المكرمين .

ترجمه المؤلف :

مولده و نشأته : هو المعافى بن زكريا بن يحيى بن حميد بن حمّاد ابن داؤد " أبو الفرج الجريرى النهروانى القاضى المعروف بابن طرار أو طراراً ، ولد يوم الخميس السابع من رجب سنة ٣٠٥ أو ٣٠٣ الهجرية فى النهروان الواقعة بالقرب من بغداد آنذاك .

تلقى الأدب من أبى عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفه الشهير بنفطويه ، و أخذ الحديث عن أبى الحسن بن شنبوذ ، و يحيى بن محمد بن صاعد ، و أبى القاسم البغوى و خضر بن حسين الحلوانى ، شيوخه كثيرون منهم :

محمد بن القاسم الانبارى الكوفى و أحمد بن إبراهيم العقيلى " و محمد بن الحسن بن دريد "، و الحسين بن القاسم الكوكبى " و محمد بن الحسن بن زياد المقرىء "، و والد المؤلف نفسه زكريا النهروانى و هناك كثير من الرواة و المحدثين كان يروون عنه ، منهم : القاضى أبو الطيب الطبرى و أبو القاسم الأزهرى و أحمد بن على التوزى ، و أبو على محمد بن الحسين الجازرى .

مذهبه :

كان القاضى أبو الفرج يذهب مذهب أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ الهجرية و ينسب إليه فيقال له " الجريرى "، نظراً إلى اهتمامه فى فقه ابن جريرى الطبرى ، و معذا المؤلفنا أقوال تنبىء عن أنه يميل إلى مذهب التشيع ، و كثير من المحققين قد اشاروا بذلك .

حياته العلمية :

كان القاضى المعافى من اعلم الناس فى وقته بالفقه و النحو و اللغة و الاخبار و أصناف الأدب ، و قد اعترف له أكثر أهل العلم و الفضل بعلمه و نبوغه ، و قد روى الخطيب البغدادى فى تاريخه عن الفقيه الشافعى ، أبو طالب الحسن بن عيسى ، انه قال : إذا جاء القاضى أبو الفرج فقد حضر العلوم كلها .

و كان أبو محمد البانى يقول : لو اوصى رجل فى ما له بأن يدفع إلى اعلم الناس لا فتيت بأن يدفع إلى ابن طرار ،

و كان أحمد بن عمر بن روح من تلاميذه هو يقول : ان المعافى بن

زكريا حضردار لبعض الرؤساء ، و كان هناك جماعة من أهل العلم و الأدب فقال له : فى أى من العلوم نتـــذاكر ؟ فقال المعافى لذلك الرئيس : ان خزانتـك قد جمعت أنواع العلوم و أصناف الأدب ، فان رأيت ان تبعث بالغلام إليها و تامره أن يفتح بابها و يضرب بيده إلى أى كـتاب قرب منها فيحمله ثم تفتحه و تنظر فى أىّ نوع هو فنتذاكره و نتجارى فيه . قال ابن عمر بن روح : هذا دليل على أنه كان متبحّراً فى كل العلوم . كان القاضى معاصراً لابن النديم ، و قد ذكره و ذكر مصنفاته ، و هو يقول : ان المعافى النهروانى القاضى فى عصرنا ، هو اوحد عصره فى مذهب أبى جعفر و حفظ كـتبـه ، و مع ذلك فهو متفنن فى علوم كـثيرة مضطلع بها مشار إليه فيها فى نهاية الذكاء و حسن الحفظ و سرعة الخاطر فى الجواب .

هذا العالم الجليل كما نقل « ياقوت فى معجم الأدباء » مع اتساع علمه و أدبه و فضله المشهور كان فى الفقر و البؤس و سوء الحال . للمعافى أشعار ذكرها معظم مـترجميه و لـكن لم نعثر على شعر له فى ما عهد إلينا من تصحيح كـتابه .

حياته الاجتماعيـــة :

قد ولى أبو الفرج المعافى القضاء بباب الطاق (فى شرقى بغداد) نيابة من القاضى ابن شهر .

وفاتـــه :

توفى المعافى يوم الاثنين « الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة ٣٩٠هـ «

و كان ذلك فى خلافة القادر بالله[١] .

مصنفـــاتـــه :

للمعافى مصنفات كثيرة فى علوم مختلفه ، و قد ذكر ابن النديم فى كتاب الفهرست اسماء حوالى عشرين كتاباً من مؤلفاته ، و ذكر ابن النديم أيضاً ان المعافى نفسه اخبره بأن له نيّفا و خمسين رساله فى الفقه و الكلام والنحو و غير ذلك ، و من أحسن كتبه ما خلا المصنف تذكره « كتاب انيس الجليس ، يذكر فيه فضائل جمه و اخبارا مستحسنة و غير ذلك .

و الجدير بالذكر هنا ان القاضى نفسه قد ذكر اسم عدد من مؤلفاته فى كتاب « الجليس » الذى لم يذكره ابن النديم فى كتابه « منها فى التفسير » هو البيان الموجز فى علوم القرآن المعجز و تارة سماه « البيان الموجز من علم القرآن » و لم نقف حتى الآن على أىّ نسخة منه . كتاب « الجليس الصالح الكافى و الأنيس الناصح الشافى » .

نرى كثيراً من العلماء و المحققين قد صنفوا كتاباً حول موضوع واحـــد أو موضوعين فقط ، و لكن صاحبنا هذا المعافى بن زكريا كتب موسومة فقد جمع بين الأدب والشعر والحديث و الفقه و التاريخ والتراجم

١- راجع لترجمة المؤلف : اشارة التعيين الورقة ٥٤ و الأنساب ١٢٩—٥٧٣ بغية الوعاة ٢٩٤ تاريخ ابن الأثير ٢٠٧/٧ تاريخ بغـــداد ٢٣٠/١٣—٢٣١ تاريخ ابن كثير ٣٢٨/١١ تلخيص ابن مكتوم ٣٤٩ ابن خلكان ١٠٠/٢ شذرات الذهب ١٣٤/٣ طبقات ابن قاضى شبهـــه ٣٤٩/٢ طبقات القراء ٣٠٢/٢ عيون التواريخ ٣٩٠ الفهرست ٢٣٦ معجم الأدباء ١٥١/١٩ النجوم الزاهرة ٢٠١/٤ و فى انباة الرواة ٢٩٦/٣ .

و اللغـة و النحو و الأنساب و أسماء الرجال فى كـتاب واحد و هو كـتاب الجليس الصالح و الأنيس الناصح الذى يـكون موضوع رسالتنا هذه .

هذا الـكـتاب يحتوى على مائة مجلس و موضوع كل مجلس منه قصة أو حديث تتخلله مباحث اللغة و الفقه و الحديث و الامثال و آيات القرآن الـكريم وفى هذا الـكـتاب أيضاً كـثير من الأشعار للشعراء المشهورين و كذلك للشعراء المجهولين ، كما فيـــه أشعار لم يعزوها المؤلف إلى قائلها ، و قد املى المؤلف هذا الـكـتاب على تلميذه ، أبى على محمد بن الحسين المعروف بالجازرى النسخ اللخطية لهذا الـكـتاب :

توجـــد مخطوطات كـتاب " الجليس " فى برلين و باريس و كمبريج و حوثا و ليدن و دمشق و تركيا و الهند ، و لـكـنها ناقصة و أكمل نسخة توجد فى العالم حتى الآن هى نسخة مـكـتبة أحمد ثالث طوب قبول سرائى [١] " باستنبول " ، و قد حوت هذه النسخة المجالس المائة كلها ، و هى التى اعتمدنا عليها و نسميّهـــا " الأصل " فى تحقيق هذا الـكـتاب تبلغ أوراقها ٢٥٦ ورقة فى كل صفحة من صفحاتها ٢٣ سطراً خطها جيّد و لـكن دقيق جـدّاً ، و كـتب فى آخرهـا : و وافق فراغـــه يوم الخميس تاسع و عشرين شوال من سنة تسع و عشرين و ستمائة هجرية . و لم نجد اسم كاتبها ، لهذه المخطوطة نسخة مصوّرة بالميـكر و فيلم فى مـكـتبة جامعـــة طهران .

١- ذكر الدكتور مصطفى جواد هذه اللفظة هـكذا « طوبقبوسرائى » و يبد و انها « توب قاپوسرائى » راجع مجلة المجمع العراقى سنة ١٩٥٩ .

و توجد أيضاً فى مكتبة داماد إبراهيم بتركيا نسخة لهذا الكتاب و هى التى رمزنا إليها (داماد) هذه النسخة تحتوى على ٤١ مجلساً ابتداء من المجلس الأول إلى المجلس الحادى و الأربعين ، عدد أوراقها ١٥٢ ورقة و تضمّ كل صفحة منها ٢٩ سطراً ، و قد كتبت فى ظهرها هذه العبارة „ كتاب الجليس الصالح الكافى و الأنيس الناصح الشافى من املاء القاضى أبى الفرج المعافى ابن زكريا بن يحيى الجريرى .. رواية القاضى أبى الغنايم محمد بن على ، الزجاجى رضى الله عنهما و جعل الجنة متقبلهما و ماواهما : و لم يذكر فيها اسم كاتبها و تاريخ كتابتها ، خطّ هذه النسخة جلىّ ، و لكن فيها بعض الأغلاط و لا سيّما فى وضع النقط ، و سقط منها بعض الاخبار و العباراب ، صورتها موجودة فى مكتبة جامعة طهران أيضاً .

و توجد فى باريس ثلاث نسخ ، و النسخة الأولى من هذه النسخ الثلاث هى موضوع بحثنا ، و هى تشمل ١٥ مجلساً من المجلس الأوّل إلى الخامس ، و من المجلس الثانى عشر إلى السابع عشر ، و من الرابع و العشرين إلى التاسع والعشرين ، و تحتوى هذه النسخة ١٠١ ورقة و فى كل صفحة ٢١ سطراً خطّها جيّد نسبىّ و لكن فيها خرم كثير و قد كتبت فى القرن الثالث عشر الميلادى و رمزنا إليها (باريس ١) لهذه النسخة المخطوطة مصوّرة بالميكر و فيلم تحفظ فى مكتبة مولانا آزاد بالجامعة الاسلامية بعلى كره فى الهند .

الجهود المبذولة لدراسة هذا الكتاب حتى الآن :

هذا الكتاب كما اشرنا سابقاً يحتوى على مائة مجلس و قد اعتنى

زميلى الدكتور الشروانى مدرس اللغة العربية بجامعة عليكره بتحقيق خمسة و عشرين مجلساً من اوليات مجالس هذا الكتاب باشراف الأستاذ المعظم الدكتور مختار الدين أحمد إذاً فموضوع رسالتى هذه هو تحقيق خمسة و عشرين مجلساً من التى تلى تلك المجالس .

و اما منهجنا فى التحقيق :

(١) مقابلة النسخ مع بعضها قد ذكرنا فيما مضى بان أكمل نسخة توجد فى العالم حتى الآن هى نسخة تحفظ فى مكتبة « أحمد ثالث » باستنبول و لذلك اتخذنا هذه النسخة املا وقعنا بالمقارنة بينها و بين نسخة داماد إبراهيم و كذلك بينها و بين نسخة باريس—١ ، و مع الاسف أن هاتين النسختين كما اشرنا آنفاً ليستا كاملتين ، لأن نسخة داماد إبراهيم تشترك مع نسختنا الأصلية فى أحد عشر مجلساً ، و نسخة باريس— ١، فى أربعة مجالس فقط ، و عند مقابلة هذه النسخ كلها وجدنا لغة أو عبارة اختلفت النسخ فيها ، فان كان فى النسخة الأصلية خطاء أخذنا صحيها عن سائر النسخ و اثبتناها فى المتن ثم اشرنا إلى هذا الغلط فى الشرح ، و إذا لم نتيقن من ذلك اكتفينا بذكر الاختلاف فقط . و قد انتهجنا هذه الطريقة بالنسبة لألفاظ أو عبارات توجد فى هامش الأصل أيضاً . و الجدير بالذكر هنا ، « اننا لم نكتسف المقابلة بين هذه النسخ الثلاث فحسب ، بل عمدنا إلى مطابقتها مع ما كتب فى هذا المجال و حول هذا الكتاب ،

(٢) تاصيل الأبيات الشعرية و تعيينها من الدواوين الشعرية و الكتب الأدبيـــة :

فى هذا القسم من الكتاب توجد نحو ٧٠٠ بيتاً من الشعر للشعراء الجاهلية و المخضرمين و الامويين و العباسيين ، و عدد منها لشعراء الخاملين و لم يعزوها المؤلف إلى شخص ، و قد وقع الخطاء فى نسبة بعض الأشعار . و كذلك ذكر المؤلف أبياتاً للشعراء المعروفين و لم تجد هذه الأبيات فى دواوينهم المطبوعة و رواية بعض الأبيات التى اثبتت فى هذا الكتاب تختلف عن رواية الكتب الأخرى ، ويمكن أن يعود هذا إلى سهو المؤلف أو إلى ان المراجع التى استفاد منها قد نقلت خطأ ، و على أى حال كان فان جل اهتمامى يقوم على تخريج الأبيات الشعرية من الدواوين و الكتب الأدبية و ارجاع كثير من الأشعار التى اهمل المؤلف ذكر قائلها إلى مصادرها .

(٣) استخراج نحو ٧٠ آية من سور القرآن الكريم .

(٤) مقابلة حوالى ٥٠ حديثاً من الأحاديث النبوية مع كتب الصحاح وغيرها من كتب الاخبار المعتبرة ، مع ذكر ما وجدنا مصادرها فى شروحنا .

(٥) الحصول على كثير من الامثلة و القطع الأدبية ، و كذلك القصص و الحكايات التاريخية من هذا الكتاب فى سائر الكتب الأدبية والتاريخية .

(٦) التعريف باعلام الأشخاص و الأماكن و الأمم التى وردت فى هذا القسم من الكتاب ، و قد كان ذلك امراً مرهقا لأسباب ، اهونها كثرة اسماء الأشخاص فى هذه الرسالة .

ففيها من اسماء الاماكن نحو ٦٠ موضعاً و أعلام الامم و القبائل نحو ٣٥ و بلغت اعلام الأشخاص نحو ١٠٤٢ . لم تتعبنا كثرتها بقدرها اتعبنا :

٢ - تفنّن المؤلف فى غرض اعلامه لأن المؤلف يسمى الشخص مرة باسمه و ثانية بكنيته و ثالثة بلقبه و نسبه . و امثله ذلك كثيرة فى هذه الرسالة و لكننا تحملنا كل ذلك من المشاق و بذلنا ما فى الوسع حتى أمكننا الحصول عل ترجمة حوالى ٧٢٠ علماً من كتب التراجم ، و دللنا على هذه الجماعة المعروفة لدينا بوضع رقم الصفحة الخاصّة لترجمهم بين قوسين ، و ذلك فى الفهرست الخاص باعلام هذه الرسالة كما لم نترجم لمشهوريهم ، و اما عدد الذين لم نقف على ترجمتهم حوال ٢٥٠ و ان شككنا فى أن هذا الشخص هو الذى عناه المؤلف فى كتابه جعلنا كلمة لعل قبل ترجمته .

منهجنا فى تحقيق النص :

و قسمنا نشاطنا لعملية النص إلى ثلاثة أقسام :

١ - اختلاف الرواية و تصحيح المتن ، و اشرنا إلى رمزه بالأرقام العربية (١-٢-) .

٢ - تخريج الأبيات و الحكايات و التعليقات العامة ، و رمزنا لهذا النوع من الحواشى بالأرقام العربية احدى هاتين العلامتين (+ +) :

٣ - ترجمة اعلام الأشخاص ، و جعلنا الحروف العربيـــة رمزاً لها . و فى الختام اعود فاقدّم شكرى ثانيـــة من صميم قلبى إلى المحقق الشهير و العالم النبيل ، الأستاذ المعظم البروفسور مختار الدين أحمد ، رئيس

قسم اللغة العربية و آدابها بالجامعة الاسلامية بعليكره ، الذى تكرّم فضيلتـــه بتشجيعى و ارشادى فى جميع المراحل حتى نلت ما نلت ، و أسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء بمنه و كرمه .

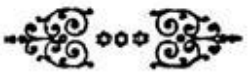

الملاحظات :

١- رقم فوق الصفحة رقم أصلى .

٢- لقد ارفقنا صورتين لمخطوطتين من هذا الكتاب اعنى كتاب الجليس .

طه حسين (القصصى المصلح)

البروفيسور محمد مهدى الأنصارى *

الأستاذ طه حسين عميد للأدب العربى و ركن من أعظم أركانه فى العصر الحديث فاذا أراد الواحد أن يتحدث عن اعماله الأدبية ، يحتاج إلى دقة كبيرة فى البحث و امعان عميق فى الفكر و أرانى لست فى ذلك المقام الذى يستطيع منه رجل مثلى ، لا يكاد يجيد فهم اللغة العربية و دقائقها ، أن يتكلم عن أعال هؤلاء العباقرة العظام و مع ذلك فقد تجرأت على أن أجدتكم عن جانب من الجوانب المزاحية الأطراف لهذه الشخصية المفذة التى كان صاحبها أديباً و مفكراً و مصلحاً و ما إلى ذلك .

فاخترت أن أحدث عنه كأديب قصصى مصلح من خلال كتابيه « المعذبون فى الأرض » و « دعاء الكروان » .

أن الدكتور طه حسين أديب و قصصى و كاتب و ناقد ، قد اجتمعت فيه هذه الأوصاف على درجات متفاوتة فى الابداع والروعة و لو أن مكانته فى النقد و الكتابة العامة أعظم منها فى الفن القصصى . و لا يدل ذلك أنه ضعيف فى القصة أو أقل ملكة فى الكتابة القصصية عن الآخرين . ولكن له أسلوب شخصى منفرد فى هذا النوع من الأدب حيث أكثر اعتماده فيه

---

* - الأستاذ السابق قسم اللغة العربية و آدابها بالجامعة الاسلامية بعليكره .

على السرد و الحكاية ، انه لا يهتم بتحليل الشخصيات معتمداً على الحوادث أو ما يصدر من هذه الشخصيات من الأعمال و الأفعال . فهو يسرد القصة و حوادثها و يبرز مقصده و مرماه من خلال هذا السرد للحوادث . و لذلك لا يسميها قصصاً و انما هى أحاديث يمليها الكاتب و يسجل فيها ما يجول فى خاطره حيث يقول بنفســه ، لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن . و لو كنت أضع لما اخترت اخضاعها لهــذه الأصول . لأنى لا أوسن بها و أذعن لها و لا اعترف بان للنقاد لهما يكونوا ، أن يرسموا لى القواعد و القوانين مهما تكن و لا أقبل من القارىء لهما ترتفع منزلته أن يدخل بينى و بين ما أسوق من الحديث ، و انما هو كلام يخطر لى فأمليه ثم اذيعه[١] .

فكأنى به يخضى ضعفه و عدم قدرته على تقديم القصة الفنية الحديثة فيرقع نفســه على الفن و أصوله مع أنه فى نقد الشعر و كتابة المقالات السياسية و الأدبية و الاجتماعية يتبع كثيراً من الأصول الفنية و الأدبيــة و لكننى أقبل منه ما تقدم ذكره من املائه الحديث فما قول إن مجموعتــه القصصية الشهيرة التى سماها « المعذبون فى الأرض » تشمل هذه الأحاديث التى أملاها عميد الأدب . و لكننى أرى ، مع كل ما قلت ، أنها ليست مجرد أحاديث بل إنها تعبر عن حوادث وشخصيات فى شكل قصص حكاها الكاتب على نمط السرد و أودعها خواطره و أحاسيسه عن الحياة الاجتماعية فى مصر ، و عن البؤس و الشقاء الذى كان يعانى منه معظم الشعب المصرى

١- المعذبون فى الأرض سطر ١٣ ص : ٢٢ سلسلة اقرا عدد ١١٨ سنة ١٩٥٥—١٩٦٥ .

و لذلك نراه يقدم هذا الكتاب إلى أولئك « الذين يحرقهم الشوق إلى العدل و إلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل إلى أولئك و هؤلاء جميعاً » و « إلى الذين يجدون ما لا ينفقون و إلى الذين لا يجدون ما ينفقون ».

و قد أردف الدكتور طه حسين هذا الاهداء بمقدمة شرح فيها ما كان يقصد بهذا الاهداء ، قال فيها «لا أجد لتصوير الحياة فى مصر أثناء الأعوام الأخيرة من العهد الماضى [١] أدق من هذين الاهدائين الذين يقرؤهما - كل من تناول هذا الكتاب ، فقد كان المصريون فى تلك الاعوام القريبة البعيدة فريقين ، أحدهما يصور الكثرة الكثيرة البائسة التى تتحرق شوقا إلى العدل مصبحة و ممسية و فيما بين ذلك من أناء الليل و أطراف النهار ، - و الآخر يصور القلة القليلة التى تشفق من العدل حين تستقبل ضوء النهار و تفزع من العدل حين تجنها ظلمة الليل . و كان فريق الكثرة لا يجد ما ينفق فى رزق نفسه و رزق من يقول فيشقى بما يجد من الحرمان ، و يشقى أشد الشقاء و أعظمه فكراً بما يجد عياله من الحرمان [٢] .

فجاءت قصصه كلها تصور هذا الحرمان ، و نرى أقصى صورة له فى قصته « دلى » صالح » التى تصور هذا الحرمان فى شخص صالح ذلك الصبى الذى لم يجد من الأكل ما يشبع و لا من الملبس ما يستر ، و قد ولد صالح من أبوين اختلفا و انفصلا ثم تزوج أبوه امرأة اخرى ، لم يتلق صالح منها ذلك الحنان الذى يلقاه الطفل من أمه ، حتى أن الثوب الذى أعطته أم

١- نشرت قصص « المعذبون فى الأرض » متفرقة فى مجلات ثم صدرت فى مجموعة قبل ثورة سنة ١٩٥٢ فصودرت ، فنشرت فى لبنان ثم فى مصر بعد قيام الثورة . مقدمة المجموعة ص : ٩ــ١٠ .

٢- المعذبون ، ص : ٥ .

صديقه أمين أخذ منه لأن زوج أبيـه لم ترض به على جسم صالح و رأت « أن هذا الثوب الجديد لم يخلق لصالح و انما خلق لابنها محمود »[١] .

إن الصداقة بـين صالح و أمين كانت قوية حتـى إذا ما شعر أمين أن صاحبه سوف يعاقب على استحامـــه فى القناة ضاق بذلك فـترك لعبته من الحديد وذهب إلى أمه ليسألها عن صالح أنه لماذا لا يحمل إلى العريف شيئاً يهديه كما يفعل غيره ليتجنب شايته عند « سيـــدنا ، الضرير ، فتجيب الأم « لان صالحاً فقير معدم لا يجد ما يقوت به نفسه فضلا عن أن يجد ما يهدى إلى العريف . قال أمين : و لماذا كان صالح فقيراً معدما لا يجد ما يقوت به نفسه و ما يدفع به شر العريف . قالت أمه و قد أخذت تضيق بالحاحه : لقد عدت إلى ثرثرتك فامض لشأنك و لا تثقل إلىّ »[٢] . و الحقيقة أن الأم لم تـكن تستطيع أن ترد على هذا السؤال والحق أن الـكاتب لم يستطع أو لم يرد أن يقول شيئاً فى هذا الموضوع و لـكنه اشار فى موضوع آخر اشارة غامضة إلى السبب فى شقاء هؤلاء الذين يـكدون و يـكافحون ثم لا يلقون الا البؤس و الشقاء و فى نعيم أولئك الذين ينعمون بثمرات الـكفاح و الجهد الذى يبذله هؤلاء الـكادحون المـكافحون بقوله « التفت إلى صالح هذا البائس المسكـين الذى ملأ مصر نعمـة و خيراً و ملأت مصر حياته شقاء و بؤسا »[٣] .

فـكأنه يشير فى هـــذه الجملة القصيرة إلى أن هؤلاء مع أنهم هم الذين

١- المعذبون ، ص : ٣٩ .
٢- المعذبون ، ص : ٣٩ .
٣- المعذبون ، ص : ٢٦ .

يجلبون الخير بعملهم و كدهم محرومون من هذه الخيرات التى يستولى عليها حفنة من الناس : أسياد هذه الأراضى التى تنتجها .

يمر الحياة بهذين الصديقين إلى أن يغيب صالح عن الكتّاب بضعة أيام ثم يحضر و قد تغيرت حاله ، جاء حزيناً ، لا يكاد قده يستقيم من الضعف ، فعلم منه صديقه أن الثوب الذى أهدته إليه أم أمين كان مصدر « شقاء عظيم و ضرّ ملح » لأنه قد ضرب من أجله ضرباً شديداً مرض على أثره أياماً .

و كانت لصالح أم طلقها أبوه و تزوجت بآخر ، رزقت منه ابناً سمى سعيداً و لكن هذا الزوج الثانى لم يستمر كسابقه فأخذت تعيش - بعد طلاقها من الثانى - مع ابنه سعيد كالمجنونة على احسان المحسنين .

و فى ذلك اليوم الذى حضر فيه صالح إلى الكتاب بعد غياب خرج صديقان همساء حتى بلغا إلى خط السكة الحديدية و رأيا منظراً راعهما ، رأيا « جثة قد شطرت شطرين و ألقى عليها ثوب غليظ يستر بشاعتها من العيون و أمرأة قائمة تلطم وجهها وتضرب صدرها ودمعها و تنشر فى الفضاء ضحكاً عريضاً . فأما الجثة فكانت جثة سعيد أكلها القطار »[١] . رأى صالح هذا المفطر و أرا و أن يقف و لكنه مضى ثم تفرق الاثنان . و علم أمين من أبيه و هو يتكلم أمه فى الليل أن صالحاً قد مات تحت القطار كما مات أخوه سعيد .

إن القصة فى غاية البساطة ليس فيها شىء يثقل على السلطات نشره

---

١ المعذبون ص : ٤١ .

و لكن مع بساطتها تعطى بعض الاشارات إلى المجتمع الذى عاشه الشعب المصرى فى فترة ما قبل ثورة ١٩٥٢ ، و قد حاول الدكتور طه حسين أن يعطى تعميما لشخصيات القصة لتشمل المجتمع بأسره و ليصبح هذه اللوحة الفنية نقدا لاذعا للقيم الاجتماعية فى تلك الفترة فقال عن صالح و بؤسه : و أكبر الظن أن صالحاً هذا لم يوجد قط لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها إلى غربها و من شمالها إلى جنوبها ، يوجد فى القرى و يوجد فى المدن و يوجد فى كل مكان ، يملأ مصر نعمة و خيراً . و هو مع ذلك يشعر الناس بأن مصر هى بلد البؤس و الشقاء . و أنا أزعم أن قارىء هذا الحديث مهما يكن لا يستطيع أن يقضى يوما من دهره أو ساعة من يومه دون أن يرى صالحاً هذا الذى لا يجد ما ينفق ، و الذى يود أن تتاح له الوسيلة ليجد الغداء أو العشاء عند رفيقه ذلك الصبى الذى لم نجد له اسماً إلى الآن [١] .

و إلى جانب هذه الطبقة الفقيرة الغالبة فى العدد المغلوبة على أمرها هناك طائفة أخرى تتمتع بكل نعمة و بكل خير تنتجه أرض وادى النيل . و هذه الطبقة الفقيرة إلى ينتمى إليها صالح و التى ملأت العالم بأفرادها لا يكاد يحس بها انسان لأنه قد تعود على رؤيتها فليس فى وجودها أمر غريب ، أما هؤلاء الذين استغلوا ثروات البلاد فهم قلة قليلة و لذلك وجودهم يلفت النظر و لذلك قال الدكتور طه حسين بعدم وجود صالح لأنه يملأ القطر المصرى . « أما أمين فهو موجود من غير شك لأننا نراه

١ـ المعذبون ص : ٢٤ .

و لا نكاد نرى غيره ، لأنه عظيم الخطر ، فهو هذا الصبى الذى لا ينام جائعاً إذا أقبل الليل و لا يغد و طا و يا على المدرسة أو على الكتاب ، و لا يطول انتظاره للغداء و لا ينبغى أن يطول انتظاره للعشاء إذا أقبل الليل ، لأن من حقه أن يتناول الطعام فى ابانه . و أن يأخذ قسطه من القوم حتى لا تتعرض صحته الغالية لبعض ما يؤذيه . هذا الصبى أو هذا الفتى الذى اتفقنا على أن إسمه أمين موجود من غير شده لأنه لا يملأ القرى ولا يملأ المدن ، و إنما هو شخص ممتاز يمكن أن يحصى أمثاله و أترابه امصاداً دقيقاً فى كل قرية و فى كل مدينة »[١] . و لذلك يعامل أمين و أمثال أمين معاملة ممتازة لانهم ممتازون فى كل أمر فاذا أذنب صالح عوقب و ضرب بالسوط فى رجليه حتى دميتا ، و أما أمين فذنبه مهما يكن لا يستحق هذا العقاب الشديد[٢] .

كذلك يتكلم الدكتور عن المطلقات كيف يعشن و علايقضين حياتهن فى صدر بيان أم صالح بعد طلاقها من أبيه فيقول :

و « أنا أستطيع أن أصنع بأمه بعد هذا الطلاق ما أشاء : استطيع أن أدعها مطلقة تعمل خادما فى بعض الدور ، و استطيع أن اجد لها زوجا تعيش معه سعيدة موفورة و أستطيع أن اسخرها لعمل من هذه الأعمال التى يعيش منها أمثالها من البائسات ، فقد أسخرها لبيع الخضر ، و اسخرها لبيع الفاكهة ، و قد أكلفها أن تصنع الخبز فى بيوت الأغنياء و أوساط الناس ،

١- المعذبون ص : ٢٤—٢٥ .

٢- المعذبون ، ص : ٣٠ .

و قد أكلفها أن تغسل الثياب فى هـــذه البيوت و قد أجد لها ما أشاء من الأعمال غير هذا كله »[١]

فكأن الكاتب فى هذا يريد أن يشير إلى بؤس هؤلاء المطلقات بحيث لا يجدن من يعولهن و يتكفل بنفقاتهن و فيضطررن العمل فى بيوت الناس أو فى الشوارع .

ان الأمر لا ينحصر على المطلقات فحسب بل هناك كثيرات غيرهن لا يعرفن غيرهن ، يتهن فى غياهب الظلمات و ليس لهن ذنب إلا أنهن ولدن فى بيت الشقاء والفقر . من هاتيك أمونة و سكينة زوج قاسم و بنته فى قصة « قاسم » . القصة الثانية من المجموعة ، فهذه الاسرة الصغيرة عاشت على ما يجود به البحر من صيد السمك عائل هذه الاسرة رجل قد أخذ به السقم حيث جعله لا يستطيع على عمل شاق ، فيخرج فى آخر الليـــل إلى البحر علّه أن يلقى من خيره شيئاً كثيراً أو قليلا فيبيع هذا الصيد و يشترى بثمنه ما يقيم أوده و أود أسرته . و قد سخى عليـــه البحر فرمى إليه سمكة كبيرة باعها لبيت عمدة و ذهب إلى السوق مستبشراً فرحا و أخذ منها ما أخذ ثم رجع إلى البيت لتفرح زوجه و بنته بهذا الخير العظيم الذى لقيه فى صباحه هذا ، و لكن ما أن وصل إلى البيت حتى فوجىء بنبأ أخذ بكل مشاعره وزاده بؤسا على بؤس ، علم أن ابنته الشابة الصغيرة قد غررت و أغويت فأنت بعمل منكر لا يحمد عقباه ، و أما الذى أغواها فهو زوج ممتها . انه رجل على شىء من الثراء يملك أرضاً ، ماضيه ملطخ ، أرى

١ـ المعذبون ص : ٣٦ .

فريضة الحج ثم تزوج عمة سكينة و استقام فى حياته ظاهراً و لكن نفسه لم تطق الاستقامة ، رأى فى سكينة شيئاً من الجمال و الشباب فاستهواها و نوى فى قلبه آمراً ، و كان قاسيا على أخى امرأته ، يرمقه فى ازدراء و يتحدث عنه فى استخفاف ، و لا يمد إليه يداً بالمعونة و لا يظهر اشفاقا عليه مما كان يبهظه من الفقر و البؤس و الداء ، و لكنه رأى ابنة هذ الرجل كاعبا تستقبل الحياة فى قوة و جمال و فى بؤس و شقاء أيضاً فلم يرق لبؤسها و لم يرحم شقاءها و انما اشتهى جمالها و طمع فى محاسنها و ابتغى إليها الوسائل ، و ما أكثر وسائل الاغراء الذين يبهظهم الشقاء[١] . فقد كان له ما دبره و اكتشف الأمر صباح يوم على أمونة ام سكينة كان يوماً سخى فيه البحر إلى قاسم و لكنه أضحى أشقى يوم فى حياة هذه الأسرة البائسه السكينة . و خرج قاسم فى الصباح التالى إلى البحر من غير عودة و ترك زوجه و بنته تنتظرانه و تطيلان الانتظار بدون جدوى .

ماذا كان بعد ذلك اليوم فى حياة هاتين البائستين ، لم يكن الكاتب فى حاجة إلى أن يصورها . انه يقول : « و قد يحب القارىء ان يعرف كيف عبت بهما الأمل و كيف بطش بهما اليأس ، و كيف لعبت بهما صروف الأيام ، و لكن القارىء ليس فى حاجة إلى أن أقص عليه هذه الخطوب . فأيسر شىء عليه أن ينظر إلى هذه الحياة الصاخبة من حوله ، فسيرى أمونات و سكينات لا يحصين بالمئات و بالألوف ، و انما يحصين بالمئات الألوف ، و قد يحصين بالملايين . تطلع الشمس عليهن كل يوم

١- المعذبون ، ص : ٥٨ .

شرقة بنور ربها لا تحمل إليهن رضا و لاغبطة و لا أملا فى الرضا و الغبطة و يقبل الليل عليهن مظلماً قاتم الظلمة يزدان بهذا القمر فى أطواره المختلفة و يزدان بنقط النور هذه التى تنتشر فى السماء و لكنه لا يحمل إليهن راحة و لا أملا فى الراحة [١] .

فالبؤس الذى يأتى على المرأة ليس من الطلاق فحسب بل هناك عيوب كثيرة فى حياتنا الاجتماعيـــة تجلب الشقاء على هاتيك البائسان ، ما ذنب هاتين المرأتين ، الأم و البنت حتى تشقيا بفقد عائلهما و تخوضا الحياة القاسيـــة المرة ؟ أما المذنب الحقيق فيعيش فى كل احترام و مكرمة لأنه تاب من حياته الماضية و أكرمه إليه بتوفيقه لأداء فريضه الحج و الزيارة .

ان القصص التى عرضها الدكتور طـــه حسين فى « المعذبون فى الأرض » انما هى ألواح فنية لم ترسمها ريشـــة خنان بل حظها قلم أديب عظيم ، من تلك الألواح لوحة تصور شخصيـــة خديجة ، هذه الشابة الجميلة الودود من الجميع ، فتاة قد اجتمع فيها جمال الشكل و جمال الخلق ، ولدت فى بيت مشاع فيه الفقر و الفاقة و مع ذلك تأبى ان تعيش و أسرتها على تلك العطاءات التى تنعم بها ذوات اليسر على الفقراء البائسين فى القصـــة الثالثة ،

يأتى لها يوم قد فرض على كل فتاة أن يأتى حين تبلغ سن الزواج و لكن خديجة تمتنع و تلح على الامتناع ، فتعطى لهذا المنع معان كثيرة

١ـ المعذبون ، ص : ٥٨ .

لأن ليس لفتاة فى مثل حالها الا أن تفرح بعريس حسن الشكل و المال فضلا عن امتناعها و أخيراً تستطيع سيدتها التى تخدم خديجة فى بيتها أن « تختلس منها الرضا اختلاساً و يتم الزواج فيفرح الزوج بهـا و تفرح أسرتها بهذه المصاهرة فى بيت ذى يسر وسعة . ولكن هذا الفرح لا يستديم حيث تتخلص خديجـة من حياتها بالانتحار و لا يعرف سبب هذا الانتحار إلى أن تقول سيدتها « و هى تكفكف دموعها تريد أن تنجم و تثبت صوتا يريد أن يتفطر : لقد أكرهت خديجة اكراها على الزواج و مس حياءها النقى و نفسها الطاهرة منـه دنس لم يستطع الحب أن يغسله فغسله الموت »[١] .

إن القصة فى مظهرها البسيط ليس فيه شىء يلفت النظر ، فهى قصة فتاة أكرهت على الزواج فانتحرت لأنها لا تريد الزواج فليس ذلك بأمر غريب ، فكم من فتاة أكرهت على الزواج بمن لا تريد الزواج به . و انما الغريب هى هذه الشخصية المنفردة . هذه الفتاة التى أعطى لها اسم خديجة فى القصة ، انها لا تريد الزواج مطلقاً ، و ليس ذلك طبيعة البشر . و ليس فى القصـة ما يشير إلى أنها حبت فتى آخر أو أنها كانت تكره هذا الشاب الذى تقدم لخطبتها . و انما هو مطلق الامتناع ، فهى شخصيـة شاذة فلما توجد . فلا تستحق أن تتبع حولها قصـة . و مع ذلك فان فى القصة أموراً قد يكون من أجلها تحدث الدكتور طه حسين عن هذه الشخصية الشاذة . من تلك الأمور أن أم خديجة لم تطمئن إلى هذا الامتناع

١- المعذبون ، ص: ٨٠ .

فظنت بها الظنون . كذلك البيئة التى عاشتها الفتاة لم تقبل منها أن تكون مفزعـــة شاحبة الوجه يوم زفافها . فلما ذا هذه الظنون و لما ذا يفرض فى الفتاة التى تمتنع عن الزواج أنها قد ورطت فى نفسها و شرفها ، ربما يكون هناك سبب آخر لهذا الامتناع ، من الجائز أن نفسها لا تقبل هذا الرجل زوجاً لها ، أو أنها تحب شخصاً آخر ، و ربما تكون شاذة كما فى القصة فلا ترضى بالزواج . ان هذه الظنون و هذه الوساوس لا سبب لها إلا ذلك الجهل الذى ساد المجتمع الريفى فى مصر .

لا شك فى أن موضوع القصة لا يتحمل بناء أقصوصة كاملة . و لكن حيث أنها مسألة خطيرة يجب عرضها على من يريدون تغيير الحالة الاجتماعية تحدث عنها طه حسين و حيث أنه قد صرح فى أكثر من مناسبة أنه لا يريد تأليف قصة فنية كاملة ، بل أنها أحاديث أراد توجهها إلى القراء ، فلا بأس إذا كتب فى مثل هذا الموضوع البسيط .

و من شخصياته التى عرضها فى أقاصيصه أو أحاديثـــه « سعدى » هذه البلهاء التى أكلت الوياء أخويها و انتحرت أنها بعد هذه الفجيعة و أنقذت هى من الموت فبقيت على قيد الحياة بلهاء ، حمقاء ، خرقاء ، لا تعرف أن تقوم بعمل أو تتكلم إلى انسان و مع ذلك لم تتركها يد العابث أن تعيش فى بلاهتها و حماقتها ، و تقضى حياتها فى أمان من كيد الزمان و عبث الانسان ، فيراها الناس يوما تحمل جنيناً بين أحشائها و لا يعلم أحد من فعل هذا المنكر و لم يحاول أحد أن يعلم ، بل يرون هذا المنظر البشع البغيض فلا تثير فى نفوسهم رحمة و لا يجرى ألسنتهم بكلمة رثاء . و أنما

ينظرون ثم يتضاحكون ثم يتبادلون هذه الألفاظ الغليظة التى تصور سخرية أهل الريف ، لأنهم يرون سعدى البلهاء تسعى و بطنها يسعى بين يديها ، فقد عبث بها غول من أغوال الطريق فوضع فى أحشائها جنيناً و هى بلهاء لا تفرق بين القول و الرجل و لا بين الملك و الشيطان و لا تعرف ما يراد بها و لا تعرف ما تريد إن كان لمثلها أن تريد »[١] .

هكذا يصور الكاتب ذلك المجتمع الذى لا يلقى باله إلى مثل هؤلاء المعذورين الذين لا يملكون من الدنيا أو من أنفسهم شيئاً ، كأنهم خلقوا ليكونوا أداة لفكاهة الآخرين و لعبهم .

و من الغريب فى « المعذبون فى الأرض » الذى يلفت النظر و الاهتمام أن ابطال القصص كلها شخصيات سلبيـــة تقبل البؤس و الشقاء و الفقر و الفاقة و لا تحاول التمرد على هذه الأوضاع القائمة المهيمنة ، و لا تكافح أن تعمل لتغييرها ، و تبلغ هذه السلبية فى ابطال « المعذبون » إلى أن معظمهم ينهون حياتهم بالانتحار ، فيهربون من تحمل شاق هذه الحياة . و قد صرح الكاتب بذلك فى قصة « صفاء » بقوله : فما اجتماع الفقر إلى الفقر و ما اقتران البوس إلى البؤس ، و ما التباس الاعدام بالاعدام ! حق اذن أن الحب لم يخلق الفقراء و أن الفقراء لم يخلقو ليحبوا ، و انما خلقو ليكدوا و يجدّوا و يعملوا و يكسبوا القوت ، فان بلغوا من ذلك ما يريدون فهو خير لهم و ان لم يبلغوا فان فى الشقاء لهم سعة و فى الموت لهم راحة

١ـ المعذبون ص : ١٠٠ .

و روحاً »[١] .

و كذلك فعل عبد السيد بطل هذه القصة حين لم يستطع أن يقترن بحبيبة « صفا » اختار الموت ليجد فيه راحـــة و روحاً ، ان عبد السيد لم يكن يستطيع أن يعمل شيئاً لا سعاده و اسعاد حبيبة لأنه خامل لا يكاد يجيد عملا ، بل انه ليس فى مقدرته أن يكسب لنفسه حياة طيبة ، فلم يكن له مجال أن يعيش بعد زواج صفاء برجل آخر ، فاختار له الكاتب أن يموت منتحراً .

و لكن ما بالقا بصديقنا محمود فى قصة « رفيق » انه شاب أبوه موظف ذو منصب كبير و لكنه تزوج بامرأة أخرى فى حياة أم محمود ، ثم ماتت أمه وانقطع عنا الخبر عن هذه الأسرة . ثم بعد مدة نلتقى بصديقنا محمود وهو طالب فى الجامعة فى حالة عسر شديدة لابد انه تحمل الشاق و كافح فى سبيل الوصول إلى الجامعة و كان له أن يكمل الدراسة فى الجامعـــة ثم يدخل فى الحياة العملية نجاح ، ولكن الكاتب لم يرض بذلك فقد أرا و له أن يموت بحمى التيفوئيد .

لا ندرى لماذا هذا اليأس و القنوط و هذا التشاؤم الذى يتكرر فى أحاديث طه حسين و قد ظهر ذلك جلياً واضحاً فى الفصول الأخيرة التى لا يمكن اعتبارها قط قصصا و انما هى مقالات قصيرة ضمت إلى هذه القصص ، تحدث فيها الكاتب عن كوابرا و عن سوء أحوال الشعب ، و طالب الحكومة أن تضاعف الضرائب لتستطيع تحسين أحوال الموظفين

١- المعذبون ، ص: ١٤٧ .

الذين صور حالهم فى فصل آخر تحت عنوان « خطر

و قد بلغ به التشاؤم إلى أن صرح فى آخر مقالته تحت عنوان « سخا » بقوله : « صدقنى أن الخير كل الخير للرحل الحازم الا ريب أن يفر بقلبه و عقله و ضميره من هذا الجيل فان أعجزه الفرار إلى بلاد أخرى ، فلا أقل أن يفر إلى زمان آخر من آزمنة التاريخ »[١] . و لذلك نراه يهرب من عالمه الواقعى إلى العالم الرمزى فى بعض قصصه الأخرى مثل « أحلام شهرزاد » .

ان طه حسين يذكرنا بأحاديثه فى « المعذبون فى الأرض » بما كتبه سلفه مصطفى لطفى المنفلوطى . و لكن العصر الذى الف فيه قصصه كان عصراً لم يكن للانسان أن يأمل فى تغيير الحال . أما الدكتور طه حسين فقد تغيرت أحوال مصر فى زمنه . و أصبح فى متناول يد الشعب أن يحاول التغيير ، فبعد ثورة ١٩١٩ أجريت تعديلات كثيرة فى نظم البلاد ، جاء الدستو و انتخب النواب الذين يمثلون الشعب ، و لو أنه تمثيل غير كامل ، و غير ذلك من التغيرات التى طرأت على البلاد . فكان لكاتب إلا يعرض هذه اللوحات الفنية التى تعبر عن قنوط و يأس من الاصلاح ، و لا سيما طه حسين الذى سبق أن قاد ثورة فكرية و ثقافية و أصبح من أعم صانعيها والعاملين من أجلها . و لكن كتابه هذا لم يشترك فى الأعمال الثورية بقدر ما اشتركت كتاباته الأخرى . و الذى قام بالتغيرات التى ادخلها فى نظم التعليم و التربية و نشر من أفكار تقدمية على يد أولئك

١- المعذبون ، ص : ١٨٢ .

الآلاف من تلامذته الذين نهلوا من منبع فكره حب الحرية و الكرامـــة و الايمان بالشعب . أما قصصه هذه فليست إلا عملاً صغيراً فى هذا المجال و كم كنا نود الا نقرأ له قصة لم تبلغ من النفج الفنى و الفكرى ما يرجى من أديب عبقرى مثل عميد الأدب .

لطه حسين قصة أخرى تشبه الرواية فى حجمها و عدد صفحاتها سماها « دعا و الكروان » و هى قصة أسرة ريفية بدوية ، تعيش فيها آمنة مطمئنة فى تلك الأراضى البعـــيدة من المدن و من الحياة الحضارية و لكن لرب العائلة جولات آثمة ، ففى احدى مغامراته يقع فى أيدى من اعتدى على شرفهم فيقتل و يخلف وراءه زوجة « زهرة » و بنتين « هنادى » و « آمنة » يطردهن الأهل والأقارب ضيقا منهن بذلك العار الذى لحق بالأسرة فيعبرن النيل إلى الصفة الثانية . و بعد مطاف طويل ينتهى بهن السير فى مدينـــة صغيرة من مدن الريف ، و يشتغلن خادمات فى بيوت الأغنياء ، هنادى فى بيت مهندس عازب يعيش منفرداً فى هذا البيت الضخم ، و آمنـــة فى بيت المأمور خادمـــة لبنته خديجـــة و قد توطدت الصداقة بينها و بين سيدتها خديجـــة فأخذت تتعلم معها القراءة و الكتابة . أما هنادى فتسقط أمام اغراءات المهندس ، فتقرر الأسرة تركا لمدينة إلى بلد آخر ينزلن فيـــه ضيفاً فى دوار العمدة . و هناك تعرف آمنـــة ما كان من أمر اختها مع المهندس ، و من هذا البيت ترسل الأم من تنجر أخاها بمقدمهن إلى هذا البلد ، فيأتى إليهن و يرحلن معه ، و قد علم من أخته ما كان لهنادى من الزلة فيصمم على قتلها فى حفرة أعدها فى طريق عودتهم لهـــذا الغرض ،

تترك هذه الجريمة فى خيال آمنة أثراً عنيفاً يذهلها و يغيبها عن وعيها . كم يوما بقيت فى ذهولها ، لا تدوى ، و قد استحالت عليها الحياة فى هذه القرية مع أهلها ، انها لا تستطيع النظر إلى خالها ذلك الذى تلوثت يداه بدم أختها فتسللت من البلد بمجرد ما استعادت قوتها بعد هذا المرض الأليم ، طافت ببلدان مختلفة حتى استقر بها المقام فى دار المأمور الذى اشتغلت عنده منذ زمن .

عادت حياتها إلى مجراها السابق مع خديجة و أهل الدار ، و نسيت من حياتها الماضية ما كان الا شخصين لا تعارفان خيالها ، أختها الصريعة فى تلك الرمال و ذلك الشاب الذى ليمونه الباشمهندس . و مضت المسنون و فى نفس آمنة أمر نحو هذا المهندس لعله حب الثارمنه على ما فعل بأختها .

و خطبت خديجة للمهندس فسعت آمنة إلى عرقلة هذا الزواج حتى أخبرت أم خديجة بما كان بين المهندس و بين اختها هنادى ، فتصل إلى ما تريد من فسخ الخطبة .

ثم بعد مناورات يمد منتهى بها الأمر إلى العمل فى منزل المهندس ، و هنا ينشب الصراع بين الخادم و سيدها المهندس ، فتأخذ تلعب بسيدها بين الترغيب و الامتناع حتى تشتد به الرغبة فيها ثم تنتهى هذه الرغبة إلى حب ينتهى إلى الزواج بعد تنقله إلى القاهرة .

هذا هو هيكل القصة باختصار و فى هذا التلخيص يبدو أنها لا تمس بتلك المشاكل التى كان الشعب المصرى يعانى منها حين نشرها فى سنة

١٩٣٤ ، و لا تعالج مشكلة سياسية أو اجتماعية معينة . و لكن الحقيقـــة أن الكاتب قد عرض خلال سرد هذه القصة مسائل كثيرة لها علاقة بالحياة الاجتماعيـة و بالأخص فى الريف المصرى . و ربما أراد من عرضها لفت الا نظا إلى تلك المسائل أو العيوب التى سادت هذه النفوس السازجة من أهل الريف و قد أشار إلى ذلك فى بدء الرواية حين تناجى بطلة القصة الكروان و تنتهى بالمناجات إلى قولها « لبيك لبيك أيها الطائر العزيز ، انا نلتقى كلما انتصف الليل منذ أعوام فندير بيننا هـــذا الحديث أفتدعنى أفض أطرافا منه على الناس لعلهم أن يجدوا فيه عظمة تعصم النفوس الزكية من أن ترهق و الدماء البريئة من أن تراق [١] .

نفهم من ذلك أن الكاتب لم يكن ازاء مجرد عرض قصة للتسلية و انما كان له هدف خاص هو تنبيـه الناس إلى بعض تلك العيوب التى شعر بها فى المجتمع المصرى . و من أهمها حياة أولئك الفتيات اللا ئى تفطرهن الحاجة إلى الخدمة فى بيوت الأغنياء ثم تورطهن إلى ذلك المصير الذى نرى منادى قد وصلت إليه . ليست منادى هى الوحيدة التى لقيت هذا المصير ، بل « هناك كثيرات خدمن فى تلك الدور ثم خرجن من المدينة أو أخرجن منها ، ثم لم يعـــدن إليها و لم تعد إليها أسرهن و أنما عادت إليها أحاديثهن كلها خوف و روع و كلها يأس و قنوط و كلها جزع و فزع و كلها يلونها الدم و قد يساقط منها قطرات [٢] .

١- الرواية ص : ١١ .

٢- الرواية ص : ٨٧ .

كذلك يشير إلى ذلك الفرق الكبير بين فهم الفتاتين للحياة مع انهما ولدتا فى نفس الأسرة من نفس الأبوين و لكن احداهما نشأت نشأة ساذجة لم تأخذ قسطاً من العلم و المعرفة بينما الاخرى لها نصيب من ذلك فزى الأولى تسعى إلى التحرر و الأخذ بمتع الحياة بلا تفكر و لا وعى فتسقط و تنتهى إلى نتيجة محققة لمثل من ولدت فى هذه البيئة الميدوية . و نرى الأخرى قد وقعت فى صراع عنيف بين عواطفها و عقلها و قلبها ، فساعدها تسلحها بنور المعرفة و قوة العقل فى التغلب على هذا الصراع النفسى و على عاطفتها التى كانت سوف تجرها إلى ذلك المصير المحتوم الذى لقيته أختها .

إلى جانب هذه الشخصيات الاساسية هناك شخصيات جانبية تدعو التفكر و التأمل فى تصرفاتها و أعمالها و فى خلقها و سلوكها من تلك « زنوبة » التى بدأت حياتها راقصة ، شبابها مغامرات « و فتنة لنفسها » و الكثير من الناس ، حتى إذا بلغت من السن يزهد الشباب من فتنتها ، استغلت بمهن أخرى ، فهى مخبرة للشرطة و رابية تقرض الجنيه بثلاثة أضعافه ، و تاجرة تشترى من أسواق المدينة و يتبع للفقراء بثمن باهظ على أن يدفعوا مؤجلاً ، و أخذت لنفسها من أحد الخضراء زوجاً تعيش معه حياة ، يقرها القانون و تنكرها الأخلاق و الدين و يمقتها أهل المدينة أشد المقت »[١] هكذا يصف الدكتور هذه الشخصية التى ليست هى من خلق الكاتب فى القصة و ليست هى وحيدة بل هى شخصية وجدت فى مصر بكثرة

١- الرواية ص : ٤٠.

و ربما فى جميع البلاد التى عاشت حياة تشمه حياة الشعب المصرى فى فترة مغنيـــة .

و وصف الدكتور كذلـــك هاتيك البائعـــات المتجولات اللوائى يترددن على البيوت حاملات من تلك البضـائع التى تجذب عيون النسا و تلهيهن . و لم يكن وصفـــه لهن فى شخص « خضرة » أقل موعة و أقل وضوحاً من وصفـــه لزنوبة ، و لو أن الشخصيتين مختلفتات فى خلقهما و سلوكهما . و لا يمكننا نسيان « نفيسة » العراقـة التى لها دخل فى كل بيت و عنـد كل امرأة لأنها تخبر من الماضى و تتنبأ عن المستقبل « هاصلة قوية بالجن و الشياطين ، تسعى بالوسائل بينهم و بين النساء تستخدمهم فى كثير مما يشغل حياة المرأة الجاهلة الساذجـة التى لا تزال تؤمن بأن سلطان الجن على الناس لا حوله[١] .

هـذه هى بعض النماذج التى تعرض لها طـــه حسين لتبين للناس طريقهم إلى تطهير الريف من ذلك الجهل المحدق الذى تعيش فيه المرأة الريفية لأننا إذ اتجهنا إلى إصلاح مجتمعنا فلابد لنا أن نبدأ أولاً بالمرأة التى تربى أبناء جيلنا القادم من يهـدهم إلى أن يبلغوا تلك السن التى يتلقون فيها دروسهم و تربيتـهم على يد أولئك الأساتذة الذين تخصصو فى التربية و التعليم فان لم يكن من المستحيل فمن الصعب جداً أن تمحو من نفوسهم و أذهانهم ما تلقوه فى هذه السن المبكرة على يد أمهاتهم . اذن لابدلنا من تطهير المجتمع النسائى من هذه العناصر الفاسدة .

١- الرواية ص : ٤٣ .

فالقصة اذن لم توضع لمجرد عوض فتسى عن حياة الناس و انا لوحظ عند وضعها النظر إلى ما ينفع الناس وما يضرهم و لذلك تقيد فيها الكاتب بقيود كثيرة لم يأخذ بها كثيرون ، فاننا لا نجد فى الرواية موقفا واحداً يثير العاطفة الجنسية أو يكون فيها وصف لموقف أغرانى جنسى مع أن من مواضيها الحب و الجنس ، كان يمكن سقوط هنادى فى بيت المهندس فى مناظر شبره و لكن الكاتب تجنب حتى مجرد وصف اغراء المهندس لها و نجح فى ذلك التجنب . كما أن الصراع الذى صادف آمنة فى بيت مهندس بين عاطفتها و عقلها لا نرى فيه نقطة تثير العواطف و تضرب على أوتار النفس دون العقل .

و مما لا شك فيه أن الدكتور طه حسين نجح فى هدفه من عرضى هذه الرواية الا أنه قد ابتعد كثيراً فى اسلوبه كما هو شأنه فى تأليف القصص عن القصة الفنية الواقعية .

أما ما يتعلق بموضوع الأسلوب الفنى فاننى كما ذكرت آنفاً فى الكلام عن «المعذبون فى الأرض» أرانى مضطراً إلى أن أشير هنا أيضاً إلى أن أن القصة لم تبلغ من الفن الحقيقى ما كنا نتمناه من كاتب قدير مثل الدكتور طه حسين كاتب « الأيام » فالأيام و لو أنها ليست قصة فنية ، من حيث أنها ترجمة . ذاتية الا أنها أكمل و أنضج من دعاء الكروان فعلى سبيل المثال يأتى الكاتب على لسان آمنة بكلام رقيق و قوى فى الأسلوب و التعبير لا نستطيع حتى مجرد الظن ان بنتا فى ثقافة آمنة تكون صاحبة هذا الكلام الرصين والأفكار الدقيقة . لاشك أن الكاتب هيأ لبطلتها من العلم

و الثقافـة حظاً لم يتوفر لغيرها من الخادمات الا إن هذا الحظ لم يبلغ من الثقافة العالية ما يوفر لصاحبها تلك الأفـكار و التحليلات اللهم إذا كان أن يرى مجرد تعلم ميادىء اللغة الفرنسية يوفر للانسان تلك الثقافة العالية التى ظهرت فى القصة لبطلتها آمنة .

و الحقيقـــة أن الـكاتب لم يستطع أن يبعد أسلوبه و شخصيته عن تلك الشخصيات التى عرضها فى القصة فطغت شخصية [١] على كل شخصية ظهرت فى الرواية و تـكلمت عن خلجات نفسها . فهو لم يستطع أن يأتى بأسلوب و تخيلات تطابق واقع تلك الشخصيات و بذلك لم يـكن قد استوعب الواقع الحى من حياة مصر ، سواء فى الريف أو فى المدينـة فجاءت القصة خالية من الحركة فى صياغتها و أصبحت أقرب إلى التجريدات النغمية .

١- د. محمد مندور «فى الميزان الجديد» ص: ٥٣ (ط ٣).

أستاذ الأساتذة العلامة عبدالسلام الأعظمى الديوى رحمة الله

الدكتور مسعود انور العلوى*

تصل سلسلة درس جميع الناس تقريباً فى شمال الهند و خاصة ولاية اوده بامام المعقولات الشيخ العلامة عبد السلام اللاهورى و الأمير فتح الله الشيرازى بواسطة تلميذه الرشيد المشهور الشيخ العلامة عبد السلام الأعظمى الديوى و هو كان من أولاد السيد المخدوم الشيخ أعظم الثانى . من اهالى « فرنجى محل » ببلدة لكناؤ و الاسرة التى كانت تسكن فى خيراباد ، (خير آباد من مضافات سيتافور اوده) و الأسرات و العائلات التى تنتمى إلى دلهى كلها ترتبط بسلسلة تلمذه . و لكننى أقول متأسفاً والغريب ان ظروف حياة هذا العالم الفقيه الكبير . امام المعقولات و ماهر الدروس المختلفة المتنوعة بقيت مختفية و الناس لا يعرفونها عموماً . فلهذا السبب حاول الكاتب أن يعرض ظروف حياة الموصوف و اعماله العلمية أمام الناس عامة بمساعدة المخطوطات و المطبوعات و السير . لم يرا الكاتب حال الموصوف مجموعاً هكذا فى تذكرة و سيرة .

أكثر من ساعد فى رقى و رواج المعقوت و علم الكلام فى الهند هم

---

* أستاذ المساعد فى قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة على كره الاسلامية على كره .

تلاميـذ جلال الدين محقق الدوانى ، ٨٠٨هـ-٩٠٢هـ/١٥٠٢م ، و كان من ارشد تلاميـــذه خواجه جمال الدين محمود . و سلسلة تلمذه بدأ من تلميذيه مرزا جان الشيرازى و الأمير فتح الله الشيرازى ، ٩٩٧هـ-١٥٨٩م . ،

قدم الأمير فتح الله الشيرازى من بيجافور إلى قصر أكبر و هنا بلغ ذروة الصيت إلى أوج للكمال و من هذا الوقت ابتدأت إشاعـــة و ترويج العلوم العقليـــة فى المملكة بكاملها و نتج من هذا أن وجد هنا علماء المعقولات العظماء ، لا يعدون مثل الشيخ وجيـــه الدين العلوى الغجرانى ، ٩٩٨هـ - ١٥٨٩م ، ، الشيخ عبـــد السلام اللاهورى ، ١٠٣٧هـ - ١٦٢٧م ، ، الشيخ عبد السلام الديوى ، الشيخ عبد الحكيم السيالكوتى ، ١٠٦٧هـ-١٦٥٦م، الشيخ كمال الدين الكشميرى ، الشيخ عصمت الله السهارنفورى ، ١٠٣٩هـ-١٦٣٠م ، ، الشيخ محمود الجونفورى، ١٠٦٢هـ-١٦٥٢م ، و الشيخ عبد الحليم السهالوى و غيرهم لمعوا فى سماء عهودهم . و الفضلاء الذين تلمذوا على هؤلاء العلماء و استقوا منهم صاروا أئمة المعقولات فى عصورهم . هنا يجب ذكر علماء اسرة .

الشيخ عبد الحليم السهالوى تلميذ الشيخ عبد السلام الديوى ، و هو تلميذ الشيخ عبد السلام اللاهورى و هو تلميذ الأمير فتح الله الشيرازى ، ٩٩٧هـ-١٥٨٩م ، من ارشدوا شهر تلاميذ الشيخ عبد الحليم السهالوى ابنه الشيخ قطب الدين الشهيد ، ١٠١٣هـ-١٦٠٤م ، و تلميذه ابنه الشيخ نظام الدين السهالوى الفرنجى المحلى ، ١١٦١هـ-١٧٤٨م ، اكتسب الشيخ كمال الدين السهالوى العلوم العقلية و النقليـــة من أستاذه الشيخ نظام الدين الافرنجى

المحلى ، ١١٦١هـ-١٧٤٨م ، و هكذا صار الوارث الأعلى الأكبر للعائلة الخير آبادية . فالعلامة فضل امام الخير آبادى ، ١٢٤٤هـ-١٨٢٩م ، و غيره ترتبط سلسلة تلمذهم بالشيخ نظام الدين الافرنجى المحلى ، ١١٦١هـ-١٧٤٨م ، .

كان الشيخ عبد السلام الديوى الأعظمى ، إمام المعقولات فى عهده و أستاذ الأساتذة فى عصره و لكن ظروف حياته كظروف حياة الكثير من المشاهير مشاهير العلماء الهنود ظلت مختفية عن الناس بالرقم من البحث الذى قام به الكاتب لم يستطع الحصول على أحواله و آثاره مفصلاً و لم يجد حتى سنتى ولادته و وفاته صريحاً فى تذكرة . فى السير المعاصرة له شاه جهان نامة و طبقات شاه جهانى و عمل صالح و غيرها من الكتب و السير و أيضاً فى السير التى كتبت بعده مآثر الكرام و بحر زخار و غيرهما تجد ذكره بالاختصار . أهم مصدر للتعرف على ظروفه بالتفصيل نسبيا ، باغ بهار ، للشيخ خير الزمان اللكنوى و المصدر المهم الثانى و الثانوى هو ، تذكرة مشاهير كاكورى ، للشيخ الحافظ الشاه على حيدر قلندر الكاكوروى . بالاضافة إلى هذا نجد بعض المعلومات عنه فى ، كشف المتوارى فى حال نظام الدين القارى ، للشيخ الشاه تراب على قلندر الكاكوروى و نفحات النسيم فى تحقيق أحوال أولاد ملا عبد الكريم ، لمنشى أمير أحمد العلوى الكاكوروى .

فى ضوء هذه السير المعدودة المذكورة سالفا نكتب هذه السطور عن أستاذ الأساتذة الفاضل الأجل .

على غنى المعروف بالشيخ محمد خير الزمان اللكنوى (١٢٤٩هـ-

١٨٢٣) بن محمد وجيه الزمان الأعظمى النقوى مؤلف خلاصة آداب و قوانين المعروف باسم تاريخى باغ بهار ١٢١١ه كان من احفاد الشيخ المذكور و هو وضع أساس سيرته على بعض المخطوطـــات العائليـــة و الشجرات العائلية .

يعلم الكاتب ثلاث نسخ لباغ بهار احداها توجد فى المكتبة الأنورية بذاوية الكاظمية . كاكورى و ثانيتها توجد فى فرنجى محل فى بلدة لكناؤ فى المكتبـــة أبى الاحياء الشيخ محمد نعيم الأنصارى ، ١٣١٨هـ—١٩٠٠م ، و النسخة الثالثة كان يملكها الدكتور السيد وجيه الحسن رحمه الله ، رئيس قسم الفيزيالوجيا بجواهر لال نهرو كلية الطب بجامعة عليكره الاسلامية .

كان الشيخ سيد عبد السلام الأعظمى الديوى رحمـــه الله من رجال العلم العظماء فى عهد ملك شاه جهان و وطنـــه العائلى ديوه فى مديرية باره بنكى و وطنه من ناحية أمه كاكورى الواقع فى إقليم بلدة لكناؤ . فاكمل تعليمه و تربيتـــه عند جده لأمه السيد المخدوم الشيخ عبد الكريم العلوى ، ١٠٣٩هـ-١٦٢٩م ، حفيد السيـــد المخدوم القارى الشيخ نظام الدين المعروف بالبهكارى كاكوروى ، ٩٨١هـ-١٥٧٤م ،[١] . و بعد هذا ذهب إلى لاهور و استفاد من الشيخ عبد السلام اللاهورى ، ١٠٣٧هـ-١٦٢٧م ، هنا يجب ازالة الخطاء الذى وجد فى افهام الناس هو ان الشيخ عبد السلام

١- يلاحظ مقالة الكاتب عن ظروف الموصوف ، معارف ، دار المصنفين أعظم كره يوليو ، اغسطس ١٩٨٥ و كتابه « كواكب »

الديوى كان من أولاد السيد مخدوم أعظم الثانى اللكنوى [١] و هذا سيتضح من بيان نسبه . و لهذا السبب كان يكتب « الأعظمى » مع اسمه : قول الشيخ عبد القدوس انه كان من « ديوه » فى اقليم أعظم كره ليس صحيحاً [٢] . سميت مدينة أعظم كره بهذا الاسم نسبة إلى ابن الملك محى الدين اورنك زيب عالمكير ، ١٠٦٨هـ - ١٦٥٨م—١١١٨هـ - ١٧٠٧م ، الأمير أعظم شاه ، ١١١٨هـ - ١٧٠٧م—١١١٩هـ - ١٧٠٨م ، حسب الظن الغالب و الأمر الثانى أن ديوه لم تتصل بعلاقة مع أعظم كره .

هذه هى سلسلة نسب الشيخ كما يأتى : الشيخ المفتى السيد عبد السلام

١ - ابن الشيخ أبى سعيد ٢ - ابن الشيخ محب الله (برخوردار)

٣ - ابن الشيخ عبد الرحيم فياض ٤ - ابن الشيخ أحمد فياض

١- السيد مخدوم الشيخ أعظم الثانى رحمه الله عليه كان عالماً متبحراً فى عهده ، جامعاً للعلوم الظاهرة و الباطنة و اماماً لفقه الامام أبى حنيفة و اشتهر فى العرب و العجم بسبب تبحره العلمية و فضله و كماله و تصانيفه توفى فى ٢١ شوال المكرم ٨٧٠هـ—١٤٦٦م فى بلدة لكناؤ و دفن بها . عند زيارة قبر الرسول صلى الله عليه و سلم شرف بلقب مخدوم أعظم الثانى من حضور النبى صلى الله عليه و سلم . مخدوم الشيخ سعد خير آبادى و مخدوم الشاه مينا لكنوى و غيرها كانوا تلاميذه و يقول مولانا جامى فى مدحه :

آن امام زمانه روحانى شيخ أعظم به هر فنى يانى

چون به مكه رسيد رجحان داد مذهب او حنيفه نعمانى

همه علمائى شافعى مذهب بحث كردند ازانچه ميدانى

او بهر يك جواب شافى داد غالب آمد به فضل سبحانى

از جناب محمد عربى شد ملقب به أعظم ثانى

در ثايش خطاب او كافى ست اے تو جامى ازين چه برخوانى

٢- تاريخ ادبيات مسلمانان پاكستان و هند ص : ٢ : ٢٩٩ ، جامعه پنجاب لاهور .

٥ - ابن الشيخ السيـد مخدوم أعظم الثانى اللكـنوى ٦ - ابن شاه أبى البقا ٧ - ابن محمد موسى ٨ - ابن الشاه ضياء الدين ٩ - ابن الشاه شجاع الـكرمانى ١٠ - ابن الأمير مبارز الدين ١١ - ابن الأمير مظفر ١٢ - ابن خواجه غياث الدين ١٣ - ابن الأمير محمود ١٤ - ابن أمـير على ١٥ - ابن أمير أحمد على ١٦ - ابن أمير جعفر ١٧ - ابن أمير عبد الله ١٨ - ابن السيد على اصغر ١٩ - ابن الامام محمـــد تقى ٢٠ - ابن الامام موسى رضا ٢١ - ابن الامام موسى كاظم ٢٢ - ابن الامام جعفر الصادق ٢٣ - ابن الامام محمد باقر ٢٤ - ابن الامام زين العابدين ٢٥ - ابن السيدنا الامام حسين ٢٦ - ابن السيدنا حضرة على بن أبى طالب كرم الله وجهه[١] .

يظن أن السيد مخدوم الشيخ أعظم الثانى هاجر بن سمرقند إلى الهنـد ثم سـكن فى بلدة لـكـناؤ و توفى هنا و دفن بها .

الشيخ شاه تراب على قلندر الـكاكوروى ، ١١٨١هـ - ٧٦٨م—١٢٧٥هـ - ١٨٥٨م ، يـكـتب فى تذكرة أولاد جده السيد الشيخ عبـــد الـكريم العلوى الـكاكوروى ، ١٠٣٩هـ - ١٦٢٩م ،

« شادى ايشان در قصبه اميتهى به دختر سيد محمدى فياض خليفـــة بندگى نظام الدين اميتهوى شده بود

تزوج الشيخ عبد الـكريم مع ابنـة السيد محمدى فياض خليفـــة بندغى نظام الدين الأميتهوى و ولدت من

١- باغ بهار ، المصدر السابق ، المـكتبة الأنورية ، كاكورى .

و ازان اهليه دو دختر و سه پسر بوجود آمدند . دختر اول به محمد اشرف ابن شيخ عبد القادر كه برادر زادهٔ آنحضرت بود كتخدا شد ..... و دختر دومى در قصبه ديوه به مولوى ابو سعيد ابن مولوى محب الله كه از اولاد بندگى شيخ اعظم ثانى لكنوى بود كتخدا شد و از بطن وى ملا عبد السلام و غيره چهار پسر پيدا شدند كه آن همه را حضرت ايشان خود پرورش كرده ، تربيت و تعليم فرمودند [١] .

هذه الزوجة ابنتان و ثلاثة ابناء ، و تزوجت الابنة الأولى مع محمد اشرف بن الشيخ عبد القادر الذى كان ابناً لأخ السيد المذكور . و تزوجت الابنة الثانية مع الشيخ أبى سعيد بن الشيخ محب الله الذى كان من أولاد السيد مخدوم الشيخ أعظم الثانى اللكنوى فى بيرة و ولد منها الشيخ عبد السلام و اخوانه الثلاثة و قام الشيخ عبد الكريم بنفسه بتعليمهم وتربيتهم .

ملا عبد السلام مرحوم كه شاگرد مخدوم شيخ عبد الكريم و پرورش كردهٔ آنحضرت بودند در عهد سلطنت شاهجهان اولاً مدرس لاهور شدند بعده مفتى لشكر بادشاهى گشتند . از علمائى فحول

الشيخ عبد السلام رحمه الله كان تلميذاً لمخدوم الشيخ عبد الكريم و هو الذى راعى نشأته و تربيته اصبح أستاذاً فى مدرسة لاهور ثم مفتياً للجيش الملكى فى عهد شاه جهان ، ١٠٣٧ هـ - ١٦٢٨م —

١ـ كشف المتوارى فى حال نظام الدين القارى الشيخ انشاه تراب على قلندر اللكا كوروى ص : ١٢٩

آن وقت بودند انشراحات معالیه از تصانیف اوست . در قصبه دیوه حویلی که واقع حجاجی محله محل سکونت شان بود ، نیز صبیه خود را هبه کرده بودند [۱] .

۱۰۶۸ھ - ۱۶۵۸م ، و اعتبر من عظماء العلماء فی ذلك الوقت و من تصانیفه « الانشراحات المعالیة » و کان یسکن بیتاً فی حجاجی فی دیوة و اعطی ابنته هذا البیت فیما بعد .

الشیخ الموصوف اتبع طریق أستاذه الشیخ عبـــد السلام اللاهور ، ۱۰۳۷ھ - ۱۶۲۷م ، کاملاً و وافیاً بعد ان اکمل حصول العلوم الباقیة منه و قد صرح مولف ، مآثر الکرام ، بهذا هکذا :

چنانچه انحـــاد اسمی متحقق بود نسبت فضیلت نیز مرتبه مساوات بهم رساند [۲] .

هذا أمر لا یحتاج إلی دلیل أنهما یشترکان فی الاسم بل و أیضاً یستویان فی نسبـــة الفضیلة و فی درجتهما .

و هو أیضاً عمل کمدرس فی مکانه فی المدرسة التی انشأها أستاذه فی بلدة لاهور بعد وفاته و هنا صار ارشد تلامیذه المشاهیر مثل الشیخ عبد الحلیم السهالوی جد الشیخ العلامة نظام الدین الافرنجی محلی ، ۱۱۶۱ھ - ۱۷۶۸م ، و الشیخ دانیال الجوارسی و الشیخ عبد القادر الفاروقی .

و قد کان عبد السلام الدیوی فی العهد الشاهجانی قاضیاً لدلهی لعدة أیام و بعد اصبح مفتیاً لجیش شاه جهان ، ۱۰۳۷ھ - ۱۶۲۸م—۱۰۶۸ھ - ۱۶۵۸م ، .

۱- أیضاً .

۲- مآثر الکرام ، العلامه علی آزاد البلجرامی ۱ : ۲۳۶—۲۳۵ .

يكتب مولف « بادشاه نامه »

چندی به دانش آموزی متلمذه گذرانیده از اسعاد بخت بیدار خود را بآستان خواتین مکان رسانید و در سلك ملازمان درگاه خلایق پناه در آمده . لختی بخدمت عسکر فیروزی قیام می نمود اکنون از فزونی سال که باعث اختلال حواس والخلال أعضا ست حسب الحکم دست ازان بازداشته در اردوی گیهان پوی به درس متداولات ودعای دولت ابدی سمات اشتغال دارد [١] .

قضی أیامه و هو طالب العلم بسعادة حسن خطه أوصل نفسه إلی القصور و شمل نفسه فی الذین یعیذون الخلق . قام بخدمة الجیش الفاتح أیاماً و الآن أصاب الحواس اختلال و الأعصاب کسل بسبب التقدم فی العمر . ترك هذا العمل طبقاً للحکم وظل أوقاته فی تدریس العلوم المتداولة فی الجیش الملکی و فی الدعاء بالخیر للملك .

نعرف أیضاً من « عمل صالح » أنه أشغل نفسه فی الدرس و الافادة حتی رحلته [٢] . لم یخف الشیخ من الجلالة الملکیة قط بسبب فضله و کماله و عمله و استغنائه و کان یقول الحق فی القصر حتی و ان لم تدعه الحاجة إلی ذلك و لم یبال بأحد فی هذا الأمر . و مولف « باغ بهار » اشار إلی حوادث عدیدة منها :

١ـ بادشاة نامه ، عبد الحمید اللاهوری ، کلکتا ١٨٦٨م ٢ : ٣٤٣ـ٣٤٤ .

٢ـ عمل صالح ، محمد صالح کنبو اللاهوری ٣ : ٣٩٠ .

در عهـــد خویش نظـیر نه داشت
شاه جهان بادشاه به سبب اوستادیش
وتبحر علوم بسیار اکـرام او می کرد
و نزد خود می نشاند . سند افتای
اردوی معلی بنام ملا بود چنانچه تا
عرصه ممتد بخدمت مذکور ازو تعلق
می داشت . بحسب اتفـــاق روزی
بادشاه بنابر ملاحظه قلعه شاه جهان
آباد وقت تعمیرش بر فصیل آں
بود ملا را جز حاضر شدن در آنجا
عذری مناسب حال نگردید . از آنجا
که بر مشی دیوار ربط نه داشت
پایش لغزش می کـرد بادشاه فرمود
که اے مـلا از مرگ ایں قـدر
می ترسی که بر دیوار رفتن نمی توانی
گفت چـــه گونه نه ترسم ، چراکه
مثل من هزار سال چرخ اگر چرخ
زند دیـگر پیـــدا نه شود و ماننـد
حضرت بادشاه بسیار ممکن اند .
بادشاه را بد نه گذشت بلـکه تبسم

لم یـکن مثله فی عهده و کان یعظمه
شاه جهـان تعظیماً کـثیراً بسبب
تبحره العلمی و کان قریباً منـه فی
القصر . و فوض إلیه خدمة المفتی
للجیش الملـکی فتعلق بهذه الخدمـة
مـدة أیام . حدث ان قدم یوماً
شاه جهان علی سور القلعـــة المعلی
(دلهـی) یشاهد تعمیره و لم یجد
الشیخ عذراً مناسباً لعدم حضوره
هناك (فهو أیضاً جاء إلی هـــذا
المـکان) و لم یتعود عـلی المشی
علی السور لهـــذا السبب اخطـأ
برجـلاه فی المشی قال الملك لما
رأی هذا « انت تخاف من الموت
إلی درجة انك لا تقدر علی المشی
عـلی السور » فأجابه « کـیف لا
أخاف لأن مثـلی لا یولد و لو
دار الفلك ألف سنة ومن الممـکن
أن یولد کـثیر من الملك » لم
یغضب الملك علی هـــذه الجساة

فرمود .

بل اتبسم .

و فى موضع آخر يذكر جسارة الشيخ و قوله الحق هكذا :

وقتى دارا شكوه ولى عهد به حضور عرض نمود كه حضرت ظل الله و خليفهٔ رسول الله اند بر اقامى و ادا نى لازم ست كه رتبهٔ بلحاظ داشته پايهٔ خود شناخته باشند چنانچه جميع بندگان حضور اقدس بيرون از آداب نيستند مگر ملا عبد السلام كه باوجود خبر از نص و حديث شوكت سلطنت را قوت نمى دهد و معنى اطيعوا الله و اطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم الخ را خوب مى داند وعمل نمى كند بادشاه فرمود كه هرگاه ملا در حضور حاضر شود معنى آيهٔ مذكوره ازو پرسيد و عزم كنيد داراشكو موقتى كه ملا حاضر شد معنى آية پرسيد ملا گفت ظاهر است كه اطاعت كنيد الله ورسول او و نائبانش را . دارا شكوه گفت

دارا شكوه ولى عهد شاه جهان

قال مرة ان الملك ظل الله وخليفة رسول الله صلى الله عليه و سلم يجب على الجميع أن يعرفوا قدره و منزلته و يعظموه و يكرموه على هذا الأساس و على هذا الأساس جميع الخادمين للملك لا يعرضون عن الآداب الملكية قط و لكن الشيخ عبد السلام الذى يعرف القرآن الكريم و الحديث الشريف كاملاً لا يبالى بهذا الأمر مع أنه يعرف جيداً معنى ومفهوم أطيعوا الله واطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم الخ و لا يعمل على هذا . قال الملك أن يسأل الشيخ معنى هذه الآية إذا جاء و عند ذلك يقرره مجرماً و سأل دارا شكوه عند ما كان

نائب عبـارت از کدام شخص ست
ملا گـفت از مانـند نائب رسول
اند که خلق را برراه دین می آرند
پس بادشاه را لازم ست که مطیع
من باشنـــد . دارا شـکوه خاموش
ماند و بادشاه تبسم گردیده فرمود
بابا شنیدی جواب ملا. ازین گفتگو
خاطر ملا عبـد السلام قیاس باید
کـرد ،

موجوداً فی القصر ، عن معنی هذه
الآیة فأجاب الشیخ : طبعاً أطیعوا
الله و أطیعوا الرسول صلی الله علیه
و ســلم و الذین نیوبونه ثم سأله
داراشـکوه عن الذین یطلق علیهم
« النائبون » أجاب الشیخ أن علماء
الحق مثله هم نائبوا الرسول صلی
الله علیـــه و سلم الذین یسیرون
المخلوق علی طریق دین الحق و لهذا
یلزم للملك أن یطیعـــه . سـکت
دارا شـکوه و تبسم شاه جهان
و قال بنـی : سمعت جواب الشیخ؟
یمـکن تقدیر شخصیة الشیخ من هذا
الحدیث تقدیراً صحیحاً .

اثناء مـکوثه فی دلهـی ذهب أیضاً فی حضور السید خوجه محمد الباقی بالله ، ١٠١٣هـ - ١٦٠٣م و استفاد من فیضه و برکاته و لم تـکن له علاقـة بمناظـرة و مجادلة و الفروع و المنازعات یـکـتب مؤلف « طبقـــات شاه جهانی »[١] .

١ـ طبقات شاه جهانی : ذکر ٨٧١ شهور الذین مروا فی عهد تیمور و فی عهد نائبیه مولفه محمد صادق الهمدانی الذی رتبه فی ١٠٤٦هـ/١٦٣٦م و عنونه إلی شاه جهان ١٠٧١هـ/١٦٦٧م .

از ملایان ودانایان مشهور هندوستان است و در علم فقه واصول ومعانی و بیان قدرتی عجیب دارد وگویند در اصول فقه تصنیفی کرده که با تلوح دم مساوات می برند. پادشاه دین پناه حضرت صاحبقران ثانی را آمده ملازمت نمود روش و طریق وی پسندید خاطر اقدس افتاد امر فتوی اردوی معلی را به وی تفویض نمود . . . . . و روش مولوی درویشانه افتاده مثل طالب علمان به بحث و جدال کاری نه دارد چون از تحصیل فارغ شد چندی به ملازمت قطب وقت حضرت خواجه محمد باقی بوده همانا این معنی از برکت آن صحبت تحصیل کرده عمرش باد[1].

من مشاهير العلماء و الحكماء فى الهند و له قدرة عجيبة فى الفقه و أصول الفقه و المعانى و البيان و يقال أنه الف كتاباً فى أصول الفقه يساوى تلويح حضر عند الملك فاعجبته طريقته ففوض إليه خدمة المفتى للجيش الملكى . . . . . و فطرته تميل إلى الانعزال و التصوف و ليست له علاقة بالمجادلة كطلاب العلم . عند ما فرغ من حصول العلم قضى عدة أيام عند قطب العصر السيد خواجه محمد الباقى و حصل على هذه المعانى بفضل صحبته . أطال الله عمره .

الوفاة : لم تحقق سنة ولادة و سنة وفاة الشيخ الموصوف . يختلف كثيراً

١ـ طبقات شاه جهانى محمد صادق الهمدانى مخروطة فى قسم التاريخ بجامعة عليكره الاسلامية تحت رقم ٢٢٦ فارسيه اخبار يونيورستى كلكشن ٦١٧ .

يوجد هناك إختلاف المؤرخين فى سنة وفاته « عمل صالح » الذى الفـــه محمد صالح كنبو اللاهورى أكمل فى سنـــة ١٠٧٦هـ - ١٦٥٩م [١] . و هو يكتب عن الشيخ « أخيراً توفى فى الوقت المكتوب له » [٢] العم المحترم المفتى محمد رضا الأنصارى الافرنجى محلى رحمـــه الله تعالى كان قد كتب معلومات عديدة فى التحقيق عن سنة وفاة الشيخ عبد السلام رحمه الله فى مقالتـــه [٣] ملا قطب الدين الشهيد . كتب بالدلالة إلى مخطوطـــة الشيخ محمد نعيم الافرنجى محلى ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م أن سنـــة وفاة الشيخ عبد السلام المذكور تعرف من « أفضل العلماء » ١٠٨٧هـ - ١٦٧١م و مادة تاريخ الوفات الثانية : « علماء التى كانبياء بنى اسرائيل » فى « رسالة قطبية » و فى سيرة أو سيرتين ١٠٤٢هـ - ١٦٣٢م .

هاتان السنتان تحتاجان إلى التحقيق عنـــد الكاتب . كان الشيخ الموصوف قد توفى عند تكميل « عمل صالح » ١٠٧٠هـ - ١٦٥٩م و سنـــة ١٠٤٢هـ - ٣٢-١٦٣٣م أيضاً ليست صحيحاً لأن « طبقات شاه جهانى » رتب بعد هذا باربع سنوات تقريباً و ورد فيه دعاء له بطول العمر هكذا (طال عمره) [٤] و بالاضافـــة إلى هذا يتأكد من الترقيمـــة التى على « هداية

١- يلاحظ

MUGHALS IN INDIA — D. N. MARSHAL

المغول فى الهند - د- ن مارشيل :

٢- عمل صالح ٣ : ٣٩ :

٣- ذكر و فكر دلهى ٨ : ١٠ .

٤- طبقات شاه جهانى : ٦١٧ .

أخرين ،، الموجود فى الذخيرة المحفوظة فى جامعة على كره الاسلامية عليكره أنه لم يكن فى قيد الحياة فى ١٠٥٠هـ - ١٦٤٠م فحسب بل كان يلقى الدرس أيضاً .

يكتب جد الشيخ نظام الدين الافرنجى محلى ١١٦١هـ - ١٧٦٨م الشيخ عبد الحليم السهلوى فى ترقيمة ،، الهداية الأخيرين ،، .

،، تم النصف الأخير من كتاب الهداية بخط العبد الضعيف المحتاج إلى رحمة ربه الغنى العظيم عبد الحليم بن عبد الكريم الأنصارى الساكن بقرية السهالى من مضافات بلدة لكناؤ مع قراته فى خدمة أستاد علماء العصر مرجع فقهاء الدهر حجة الفضلاء الفحول فى المعقول و المنقول لا سيما الفقه و الأصول حضرت شيخ عبد السلام الأعظمى وقت العصر يوم الثلاثا الثامن عشر من شهر رمضان المبارك المنتظم من شهور سنة الف و خمسين فى بلدة دار السلطنة لاهور .

كتبت صحيفة حتى تكون لذنبى شافعاً يوم القيامة

و معلوم فناء العبد لكن يكون الخط فى الدنيا علامة [١]

ملخص القول ان الشيخ عبد السلام الديوى كان فى قيد الحياة حتى عصر شاه جهان ١٠٦٨هـ - ١٦٥٨م و كان قد توفى عند تكميل ، عمل صالح ١٠٧٠هـ - ١٦٥٩م و معنى هذا أنه توفى فى احدى هاتين السنتين و قبره فى قصبة ديوة فى اقليم باره بنكى (اوده) .

العائلة : كان للشيخ الموصوف اربعة اخوة . توفى اخ و لم يكن

١- هداية أخيرين ٢٧/٣١٨ ذخيرة فرنجى محل جامعة عليكره الاسلامية .

له ولد أو بنت و اخوان سراج الدين و محمد يسين تزوجا مع (فى اسرة غير اسرته) و لهذا السبب لم يزوج الشيخ ابناءه و بنته مع أبنائهما و بناتهما فزوج بنته أيضاً فى كاكورى فى العائلة [١] ولد للشيخ اربعة ابناء و بنت [٢] .

١ - الشيخ ضياء الدين ٢ - الشيخ عبد الوالى ٣ - الشيخ عبد الباقى ٤ - الشيخ أبو المعالى [٣] .

ولد للابناء الثلاثة الأوائل فى الذكر أولاد اشتهروا فى الفضل والكمال نرى كثيراً من المشاهير مثل الشيخ نور الهدى ، الشيخ نظام الدين أحمد ، الشيخ عبد الحفيظ ، السيد شاه أبو المنعم القادرى كنج المعرفت المعروف بصاحب الولاية ، الشيخ ذو الفقـــار على ، الشيخ برهان الدين ، الشيخ عبد الباقى شارح مثنوى مولوى معنوى و الشيخ عبد الصمد المفسر فى صف الذين خلفوهم و كان ابناؤه الأربعة مثل أبيهم فى العلم و الفضل . توفى الشيخ أبو المعالى فى حياة أبيـــه و لم يكن له ولد أو بنت و الف الشيخ الموصوف « الانشراحات المعالية » لابنـــه اثناء درسه فهو يكتب فيه « و لما كان الداعى إلى هذا التحرير الولد المغفور المبرور أبو المعالى و كان التحرير مفيداً لانشراح خاطره سميته بالانشراحات المعالية ، الخ .

مؤلفات : اعلم مؤلفين للشيخ الموصوف (١) الانشراحات المعاليـــة (٢) شرح تهذيب المنطق و الكلام

١ - الانشراحات المعالية ، « المنار » متن مشهور لأصول الفقـــه

١- باغ بهار المصدر السابق ،

٢- تلك البنت قد تزوجت مع الشيخ سيف الدين حفيد مخدوم ملا عبد الكريم العلوى .

٣- يلاحظ نفحات النسيم فى تحقيق احوال اولاد ملا عبد الكريم لمنشى أمير أحمد العلوى الكاكوروى

صنفه الامام أبو البركات عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسفى ٧١٠هـ - ١٣١٠م وكان وضع المصنف أيضاً شرحاً لهذا متنه الجيد باسم " كشف الاسرار " فى اغلب الظن الشرح الأول للمنار فى الهند هو " توجيه الافكار " للشيخ سيد يوسف بن جمال الحسينى ، مدرس فى مدرسة فيروز شاهى . كتب العلماء و الفضلاء شرحاً لهذا المتن بأساليبهم بكثرة منها " إفاضة الانوار فى اضاءة أصوله المنار " لسعد الدين أبى الفضائل الدهلوى ٨٩١هـ - ١٤٨٦م و " قدس الاسرار " لناصرالدين بن الربوة الدمشقى ٧٧٤هـ - ١٢٦٣م و " تبصرة الاسرار " فى شرح المنار للشيخ شجاع الدين هبة الله التركستانى ، ٧٢٣هـ - ١٢٣٢م ، و " اقتباس الأنوار " للشيخ جمال الدين يوسف ، و شرح لجلال الدين بن أحمد الرومى ، ٧٩٢هـ - ١٣٩٠م ، و الشرح للشيخ أحمد جيون الأميتهوى ، ١١٣٠هـ - ١٧١٨م ، المسمى بنورى الأنوار دخل الدرس النظامى فى الهنـــد و كتب الشيخ نظام الدين الافرنجى المحلى ، ١١٦١هـ - ١٧٤٨م ، شرحاً له باسم " الصبح الصادق شرح المنار "[١] .

إعلم إلى الآن نسختين " الانشرحات المعالية " أو شرح على المنار أولا هما توجد فى المكتبة الأنورية بزاوية الكاظمية القلندرية بكاكورى و النسخة الثانية توجد فى ذخيرة المخطوطات (ايج - ايل ٧٤٠) فى مكتبة خدا بخش ، بتنه و هذه ناقصة البداية . و النسخة التى توجد فى كاكورى كاملة جيدة فى التقطيع المتوسط تشتمل على ٥٠٨ صفحـــة بخط نستعليق و خفى و تبدأ هكذا بعد الحمد و الثناء " الحمـــد لله الذى دل على وجوده

١- يلاحظ كتاب الكاتب «عربى ادب مين اودھ كا حصه» (مساهمة اودھ فى الأدب العربى) .

بتكوين المخلوقات مع خطاب كن القديم و خص من بينها الانسان بالدلالة عليه بأفعاله و أقواله بلطفه العميم حتى صار مثل نور الله فى اظهار أحوال العلويات و السفليات و الجسمانيات و الروحانيات .. و بعد هذا ذكر الداعى إلى كتابة هذه السطور و هو ابنه رحمه الله أبا المعالى فى صدد شرح « منار الأصول بعد الكلمات التمهيدية » توجد فى الكتاب الحواشى المفيدة بكثرة و فصل و شرح و نسر عباراة المنار المختصرة بعد كتابتها و ليست سنة الكتابة مكتوبة فى عبارة الترقيمة فى النسختين . و خط النسخة التى توجد فى مكتبة خدا بخش ببلدة « بتنه » جلى جدا و تبدأ كذا « اعلم أن الله سبحانه و تعالى صفات ثمانية قديمة الحياة و القدرة و الارادة و السمع و البصر و العلم و الكلام و التكوين اثبته قوم من علماء ماوراء النهر و فى بعض الكتب اثبته الحنيفة و هى ليست عين الذات و لا غيرها الخ »

٢ - شرح تهذيب المنطق و الكلام : رتب العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانى ، ٧٩٢هـ - ١٣٩١م ، متناً مهماً فى المنطق والكلام باسم « تهذيب المنطق و الكلام » لابنه فى سنة ٧٨٩هـ - ١٣٨٧م و قسمه إلى قسمين . و نال تصنيفه هذا شهرة عظيمة فدخل فى درس المدرسين و كتب العلامة جلال الدين محمد بن سعد الصديقى الدوانى ٩٠٧هـ - ١٥٠١م شرحاً له الذى اشتهر كثيراً و أصبح متداولا بالرغم من كونه ناقصاً ثم كتب الأمير أبو الفتح السعيدى ، ٩٥٠هـ - ١٥٤٣م ، حاشية عليه و أكمل عمل الدوانى و كان كتب الشيخ مصلح الدين اللارى ، ٩٨٠هـ - ١٥٧٢م

أيضاً حاشية عليـــه و فاضل حسين الخلخالى ، ١٠٢٠هـ - ١٦٢١م ، أيضاً من الذين كتبوا حاشية عليه و شرح التهذيب لشيخ الاسلام أحمـــد بن محمد ، ٩٠٦هـ - ١٥٠٠م ، وجهد المقل لزين الدين عبد الرحمن بن أبى بكر المعرف بعينى ، ٨٩٣هـ - ١٤٨٨م ، و شرحان لمظفر الدين على بن محمد الشيرازى ، ٩٩٢هـ - ١٥٨٤م ، و الشيخ عبـــد الله لايزدى مشهورة من ضمن الشروح التى كتبت للتهذيب .

كتب الشيخ عبد السلام شرحاً لتهذيب المنطق و الكلام باسلوبه الخاص و راى الكاتب الحقير فقط نسخة واحدة له التى توجد فى ذخيرة حبيب كنج ١٨i٧٠ فى مكتبة آزاد فى جامعة عليكره الاسلامية و هذه النسخة تشتمل على ١٠٠ ورقة بخط نستعليق على التقطيع المتوسط ولا يوجد فى البداية بيان سبب التأليف و ما إلى ذلك بل شرح و فسر عبارات تهذيب المنطق بعد كتابتها بعد بسم الله الرحمن الرحيم و كتب أيضاً أقوال المتقدمين فى بعض المواضع فى هذا الصدد .

مثل النسخ التى سبق ذكرها فى هذه النسخة أيضاً لا تعلم سنة كتابة و لا سنة تصنيف ولكن هذه العبارة مكتوبة فى الختام اللهم اجعلنا عليين بالاسم معرضين عن الفضول بالقول من العمل و اعصمنا من الخطاء والخطل تحت شرح التهذيب صنفه الحبر الكامل عبد السلام الديوى الأعظمى يوم الجمعة قبل صلوتها . فا الحمد لله أوله و آخره .

منصور الفقيه : حياته وشعره

الأستاذ مقتدى حسن الأزهرى*

يواجـــه الباحثون فى الأدب ، و المهتمون بالسير و التراجم فى هذا العصر صعوبة مرهقة قد تكون عامّة لا مناص منها . و هى أن كثيراً من الشخصيات الأدبية و العلمية التى عاشت فى القرون الماضية قد أهملها التاريخ فلم يذكرها البتة ، أو ذكرها بالايجاز بحيث لا نستطيع رسم خطوط شخصية منهـــا و إبراز ملامحها فى ضوء المعلومات التى سجلهـــا التاريخ و قيّدها المؤرخون . و هذه الظاهرة لا تخص الخاملين من العلماء و الأدباء ، بل نرى أن كثيراً من الذين خدموا العلم و أسهموا فى الحركة العلميـــة فى عصرهم بنشاط ملموس قد أهمل ذكرهم و ضُن بالتفاصيل عن حياتهم و آثارهم العلمية ، حتى لا يمكن لنا أن نعرف أحوالهم الاجتماعيـــة و السياسية ، و نقدر مكانتهم العلمية و الأدبية .

و هذا هو ما نواجه فى الكلام عن صاحبنا منصور الفقيه الشاعر المصرى . فقد ورد ذكره فى معظـــم كتب التراجم و التاريخ ، أكثرها مطبوعة متداولة بين الناس ، و بعضها ما زالت مخطوطة إلى الآن ، و هذه المراجع — مع شهادتها للشاعر بالفضل والنبوغ العلمى و مع اشادتها بآثاره

* وكيل الجامعة السلفية و رئيس تحرير مجلة صوت لامة بنارس الهند .

العلميـــة ــ تـترك الجوانب المهمة فى حياة الشاعر و آثاره الشعرية ، و لا تلقى ضوءاً كافيـاً على الأمور و النقاط التـى تهـم الباحث ، و لا تعـرّف بالـكـتب التـى ألّفها هو حتـى نستطيع معرفة قيمتها العلميـــة . و على هذا فليس من اليسير أن نتبسط فى الـكـتابة عن حياة الشاعر و نفصّـل الـكلام فى ترجمتـــه و التعريف بمؤلفاته ، و لـكـنا مع ذلك نبذل قصارى جهودنا و نحاول تفصيل ما أجملته المراجع ، و التعريف بحياة الشاعر و فنه و ما تركه هو فى مجال العلم من الآثار .

كان صاحبنا من رجال القـرن الثالث الهجرى ، أى أنه قضى أكـثر أيامه فى ظل الدولة الطولونية ، و لذلك نريد ان نشير بايجاز إلى هذه الدولة و حالة النشاط الأدبى فيها .

ظلت مصر بعـــد قيام الدولة الأموية فى حالة ضعف و جمود فى كل ناحية من نواحى الحياة ، إلا فى فـترات قليلة عمل فيها ولاة هذه البلاد على تقدمها و رقيها ، على أنها أخذت تنتعش حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى منذ قامت الدولة الطولونيـة التـى إستقلت بحـكمها استقلالاً يـكاد يـكون تامّا . و على الرغم من أن عمر هذه الدولة لم يزد على ثمان و ثلاثـين سنة ، فان مصر أخذت فى النصف الأول من هذا العصر يقسط موفور من التقدم و الاصلاح .

كان مؤسس هذه الدولة أحمد بن طولون (٢٢٠ــ٢٧٠هـ) وصل إلى مصر فى رمضان سنة ٢٥٤هـ نائباً عن والى مصر ، حتـى وصل إلى مرتبـــة الامارة ، ثم إلى حـكومـــة مصر ، و ظل يستميت فى الدفاع عن حقوق

اكتسبها حتى آخر رمق فى حياته ، و كانت مدة حكمه نيفا و ستة عشر سنة . و بعد وفاة أحمد بن طولون ولى ابنه خمارديه ، ثم بعده ثلاثة من آل طولون ، لم يزد حكمهم عشر سنين و زوال هذه الدولة كان فى سنة ٢٩٢هـ .

كان الطولونيون بمصر أهل كرم و بذخ ، يعطون الأموال الكثيرة و يهبون الهدايا ، فاستقدموا الشعراء و الأدباء و قربوهم و وصلوهم ، و كونوا حولهم بلاطاً أدبياً أشبه ما يكون ببلاط خلفاء العباسيين ، فأنتخب هذه الحياة فى مصر أيام الطولونيين شعراً كثيراً ، و اجتمع فيها عدد من الشعراء قلّ أن يجود الدهر بمثلهم .

و الاستعراض العام للشعراء فى هذا العصر يدل على أن عدداً كبيراً منهم ظهروا فى هذا العصر . و أنشدوا شعراً فى مدح الأمراء و الولاة ، و أن كثيراً منهم تقلّب فى المدح بتقلب الأحوال السياسية فى البلد ،إذ لا همّ لأمثال هؤلاء الشعراء إلا إرضاء الأمير مهما كان هذا الأمير ، و معظم شعرهم فى الوصف و المدح و الرثاء و الحكم و الأمثال .و كان الشعراء فى هذاالعصر منغمسين فى تيار اللهو و المجون ، فقد غمرهم الترف فأخذوا بحظ وافر منه ، و كثر المجون فى هذا العصر و ازداد بازدياد ثروة البلاد . فتكونت فى مصر جماعة محمد بن عاصم و سعيد بن فاخر و أبى هريرة بن أبى العصام كما كانت فى العراق جماعة أبى نواس و أمثاله .

اسمه و حياته :

هو أبو الحسن منصور بن اسماعيل بن عمر ، التميمى المصرى ، الفقيه

الشافعى الضرير ، أصله من رأس عين البلد المشهورة بالجزيرة من نواحى حلب ، و هذا مما أجمعت المراجع عليه ، إلا أنها لم تذكر مسقط رأسه وتاريخ ميلاده . و كذلك لا نعرف الأسباب التى حملت الشاعر على السفر من بلده إلى القاهرة سوى ما قيل من أنه كان جنديا ثم كف بصره و سافر إلى مصر ، و بها توفى فى جمادى الأولى سنة ٣٠٦هـ [١] .

و يقول الزركلى : إنه سافر إلى بغداد فى شبابه و مدح بها الخليفة المعتز ثم سكن مصر [٢] . ولكن لا نعرف متى كان هذا السفر ولماذا ، ثم متى غادر بغداد إلى مصر ؟

هذا ، و قد ذكر الدكتور كامل حسين انه قدم مصر صغيراً ، ولكنه لم يؤيد رأيه بدليل ، و لم يذكر نصاً صريحاً على هذا الحكم ، و الذى يترجح عندى هو أن الشاعر قدم مصر بعد أن قضى شطراً غير قليل من حياته ، تولى خلاله منصب الجندى فى الجيش ، و مدح الخليفة العباسى المعتز فى بغداد ، كما أشار إليه ياقوت و الزركلى .

ثم بعد ذلك تبقى ناحيـــة مهمة فى حياة الشاعر لا نستطيع أن نقول عنها شيئاً ، و هى حياته العائليـــة . فلا نعرف متى تزوج و مَن ، و كم ترك من الأولاد ؟ إلا أنه من المتأكد أن كان له أولاد فانه قد خاطب بناته فى بعض أشعاره ، يقول :

بنيّتى لا تجزعى واصـــبرى عساكِ بالصبر أن تظفرى

١- معجم الأدباء ٦ : ١٨٥ و البداية ١١ : ١٣٠ و المنتظم ٦ : ١٥٢ .

٢- الأعلام ٨ : ٢٣٥

و يقول :

لولا البنـــات و الذنوب لما دعت لذكر الحنوط و الكفن

و يقول :

لولا بنـــاتى و سيتـاتى لطرت شوقـــا إلى الممات

و هـــذا كله يدل على أنه تزوّج و كان له عيال كلهم أو معظمهم بنات ، و أنه كان يهتـم بأمرهن و يوطنهن على الصبر و تحملى المشاق و مواجهة مر الحياة و حلوها .

حياتـــه العلميـــة :

قـد أشاد الرواة بالنشاط العلمى للشاعر و شهدوا له بالفضل و النبوغ فى مجال العلم و الشعر و الفقـــه ، يقول ابن خلـكان : « كان فقيهاً جليل القدر ، متصرفا فى كل علم ، شاعراً مجيداً ، لم يـكن فى زمانه مثله بمصر » :

و يقول ياقوت : « كان إماماً فى فقه مذهبـه ، أديباً شاعراً مجيداً متفنناً له حظ من كل علم ، لم يـكن فى زمانه مثله فى مصر » .

و يقول ابن الجوزى : « كان أديباً فهما عاقلاً حاد المناظرة ، وصنف المختصرات فى الفقه على مذهب الشافعى ، و له الشعر المليح » .

و من المحقق أن هذا النبوغ العلمى و هذه القدرة الفائقة فى الفقـــه و الشعر لم يظهر انتيجة للصدفة و الاتفاق ، بل كانا ثمرة لحياة علمية طويلة شاقـة عاشها الشاعر فى بداية حياته ، بذل فيهـــا جهوداً كـبيرة ، و استفاد خلالها من الأساتذة المتخصصين و شق طريقه إلى العلم مستنيراً بارشادهم و توجيهاتهم فى العلم و السلوك .

و لـكن الأسف أن أحدا من أصحاب التراجم و الرواة لم يتناول هذا الموضوع و ترك هذا الجانب المهم فى حياته غفلاً . و لذلك لا يمكن لنا الجزم بأى شىء فى هذه الناحية و لا تسمية أحد من العلماء الذين تلقى صاحبنا دروسه على أيديهم ، و استفاد منهم زمن التحصيل . نعم يذكر الامام اليافعى فى ترجمتـــه للشاعر « أنه أخذ الفقه عن أصحاب الامام الشافعى ، و عن أصحاب أصحابه » .

و من المعلوم أن هذه الاشارة الخاطفة إلى أساتذته بدون ذكر أسمائهم و مكانتهم العلمية لا تغنى شيئاً فى معرفة شخصياتهم و ستواهم العلمى و مدى ما أثروا فى تلميذهم الذى نال بعدهم شهرة كافية و أجاد فى الفقه و الشعر فاعترف الناس بتفوقه فى العلوم و رسوخ قدمه فى مجال الشعر و الأدب .

و قد رأينا مما سبق — و لو على سبيل الاشارة و الايجاز — أن صاحبنا كان على حظ كبير من المعلوم ، و كان له تخصص فى الفقـــه على مذهب الامام الشافعى و المراجع التى ترجمت لمنصور كلها تبرز هذه الناحية من حياته العلمية و تثنى عليه فى الدراسات الفقهية التى قام بها . يقول ابن خلكان : « أخذ الفقه عن أصحاب الشافعى رضى الله عنه ، و عن أصحابه ، و له مصنفات فى المذهب مليحة » .

و يقول ياقوت . « كان إماماً فى فقه مذهبه » . و تفوقه فى الفقـــه هو الذى دعا أبا عبيد القاضى إلى أن يخصص لمنصور عشية من العشايا التى كان يجلس يذاكر فيها جماعة العلماء .

و آثاره فى الفقه لم تصل إلينا حتى نتمكن من معرفة قيمتها العلميـــة

و الحكم عليها ، و الاشارة الموجزة التى نراها فى كشف الظنون و غيره من الكتب إلى مؤلفات منصور لا تكفى لمعرفة مكانتها و مميزاتها و المباحث التى تتضمنها . و من هذه الآثار : كتاب الواجب ، و المستعمل ، و زاد المسافر ، و الهداية . و هذه الكتب جميعاً فى الفروع .

و له كتاب آخر ذكره صاحب هدية العارفين [١] و هو « أسماء من نزل فيهم القرآن » و لكن لا سبيل إلى معرفة مباحث الكتاب و مميزاته سوى ما نفهم من عنوانه أنه كتاب يتناول الشخصيات التى عاشت فى زمن النبى عليه الصلاة و السلام و خصّهم التنزيل بالذكر لسبب ما .

ثم هناك حادث مهم فى حياة منصور يتعلق بناحيته الفقيه ، فصّل فيه الكلام ابن خلكان و ذكره غيره من الرواة بالايجاز ، يقول ابن خلكان : كان (أى منصور) من أكرم الناس على أبى عبيد القاضى ، حتى كان منها ما كان بسبب المسألة ، و كان لأبى عبيد فى كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلا من أهل العلم و يخلو به ، خلا عشية الجمعة فانه كان يخلو بنفسه فيها ، فكان من العشايا عشية يخلو فيها بمنصور ، و عشية يخلو فيها بأبى جعفر الطحاوى . و عشية يخلو فيها بمحمد بن الربيع الجيزى ، و عشية يخلو فيها بعفان بن سليمان ، و عشية يخلو فيها بالسجستانى ، و عشية يخلو فيها للنظار مع الفقهاء ، و ربما حدث ، فجرى بينه و بين منصور فى بعض العشايا ذكر الحامل المطلقة ثلاثا ، و وجوب نفقتها ، فقال أبو عبيد : زعم قوم أن لا نفقة لها فى الثلاث ، و أن نفقتها فى الطلاق غير الثلاث ، فأنكر ذلك

١ـ هدية العارفين ٢ : ٤٧٣ .

منصور ، و قال قائل : هذا ليس من أهل القبله ثم انصرف منصور فحدث بذلك أبا جعفر الفحاوى ، فحكاه أبو جعفر لأبى عبيد فأنكره ، و بلغ ذلك منصوراً فقال : أنا أكذبه . و اجتمع الناس عنـــد القاضى و تواعـــد و الحضور ذلك ، فلما حضروا لم يتكلم أحد . فابتدأ أبو عبيد و قال : ما أريد أحداً يدخل على ، ما أريد منصوراً و لا نصارا و لا منتصراً ، قوم عميت قلوبهم كما عميت أبصارهم ، يحكون عنا ما لم نقله ، فقال له منصور : قد علم الله الكاذب . و نهض فلم يأخذ أحد بيده غير أبى بكر بن الحداد فانه أخذ بيده و خرج معـــه حتى ركب . و زاد الأمر فيما بينهما ، و تعصب الأمير ذكا و جماعة من الجند و غيرهم لمنصور ، و تعصب للقاضى جماعة ، و شهد على منصور ، محمد بن الربيع الجيزى بكلام سمعه منه يقال إن منصوراً حكاه عن النظام ، فقال القاضى : إن شهد عليـــه آخر مثلما شهد به عليه محمد بن الربيع ضربت عنقه ، فخاف على نفسه و مات فى جمادى الأولى سنة ٣٠٦هـ ، و خاف أبو عبيد أن يصلى عليـــه لأجل الجند الذين تعصبوا لمنصور ، فتأخر عن جنازته لهذا السبب ، و حضرها الأمير ذكا و ابن بسطام صاحب الخراج ، و أوعب الناس و لم يتخلف أحـــد ، و ذكر أبو عبيد أن منصوراً قال عند موته :

قضيتُ نحبى فسرّ قوم حمق بهـــم غفـــلة و نوم
كأن يومى علىّ حتم و ليس للشامتين يوم

فأطرق أبو عبيد ساعة ثم قال .

تموت قبـــلى و لو بيـــوم و نحن يوم النشور نوم

فقد فرحنا و قد شمتنا و ليس للشامتين يوم

و قيل إنه كان حول نعشه آلاف من الجند . أظهروا سبّ القاضى و قذفوه ، و ندم القاضى نفسه على ما كان منه و تأسف على ما فاته من منصور [١] .

شعره :

كان منصور الفقيه من الشعراء العلماء الذين يتقنون كثيراً من فنون العلم ، مع أنه كان يعيش فى عصر ظهر فيه تطور ملموس فى الشعراء فقد ترك أكثرهم العلم و اهتموا بالفن الشعرى و التكسب به .

و أجمع الرواة كلهم على جزالة شعر منصور وجودته ، و شهدوا له بالنبوغ و التفوق فى هذا الفن . فعند ابن خلكان هو « شاعر مجيد » وعند ياقوت « شاعر مجيد متفنن » . و يقول ابن كثير : « له الشعر الحسن » .

و هذا يدل على أن الانتاج الشعرى لمنصور كان يتسم بسمات الكمال و يتميز بالقوة و الجدة ، و هذا الذى حمل بعض شعراء مصره على أن يعارضوه و يأخذوا من معانيه و أسلوبه ، فقد ذكر ابن خلكان لمنصور بيتين هما .

عاب التفقه قوم لا عقول لهم و ما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضرّ شمس الضحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

ثم قال : و من هنا أخذ أبو العلاء المعرى قوله من القصيدة المشهورة :

و النجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

١- ابن خلكان ٤ : ٣٧٦ و أدب مصر الاسلامية : ٢٧٦ .

و أخذ المعرى من معانى منصور دلالة كافية لبيان مقدرة منصور على ناصية الـكلام و تفننه فى معانى الشعر و صوغها بأساليب تستلفت إليها أنظار الأدباء و تحملهم على معارضتها و اتباعها .

ثم نرى الدكتور محمد كامل حسين يصرح بأنه لم ينشد قصائد مطولة ، بل كل شعره مقطعات ، و يستـــدل على ذلك بقول الحصرى : هو « و عالى المقطعات ، لا تزال تندر له الأبيـــات مما يستظرف معناه ، و يستحلى مغزاه ، و يبقى سناه »[١] .

و يبدو أن هذا صحيح ، لأننا نرى فى المراجع أن الرواة لا يوردون من شعر منصور إلا أبياتاً عديدة ، و لا يذكرون له قصيـدة كاملة . اللهم إلا ما يوجد فى بهجـــة المجالس من الأبيات التى قد يصل عددها إلى ١٨ بيتاً ، مما يحمل على الظن بأنه أنشد قصائد طويلة و لـكـنها لم تحفظ ، و يؤيد ذلك ما يذكر من أنه رحل إلى بغداد قبل مجيئه مصر ، و مدح هناك الخليفـــة المعـتز العباسى . و كذلك يقول عنه صاحب طبقات الشافعية[٢] :

« كان شاعراً خبيث اللسان فى الهجو » ، و من المعروف أن النوعين من الكلام يتطلبان الطول و يقتضيان لاستطراد ، كما هو المعروف لدى الشعراء فالغالب أن منصوراً قد مدح و هجا و أنشأ فى ذلك قصائد طويلة و لـكـنها لم تحفظ فضاعت مع الزمان .

و كانت توجـد فى مصر منذ القرن الثانى للهجرة نزعة موفية . و كان

١- زهر الآداب ٣ : ٣٢١ .

٢- طبقات الشافعية : ١٢ .

ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٨هـ من أوائل الصوفية الذين نشروا هذه النزعة و قودها ، و منذ ذلك الوقت قد أصبح للصوفية مكانة و عصبة فى مصر و قد بقيت إلى الآن .

و الدارس لشعر منصور يلاحظ أنه — مع تخصصه فى الفقه — كان يميل إلى هذه النزعة الصوفية ، فيحث الناس على الفرار و التخلى عن الدنيا ، و الزهد عما فى أيدى الناس ، يقول :

أ تلهو و قد ذهب الأطيبان و أنذرك الشيب قرب الأجل
كأنك لم ترحيًّا يموت و لم ترميتاً على مغتسل

و يقو :

رضيتُ بما قسم الله لى و فوّضت أمرى إلى خالق
كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

و كانت ثقافة منصور الدينية الواسعة و تجاربه الطويلة للناس و الزمن قد أوحت إليه كثيراً من المعانى ، و أنطقته بأبيات جرت مجرى الحكم و الأمثال ، و رددتها ألسنة الصغير و الكبير ، يقول :

يا من يسّر بموتى إذ أتاه البشير
إن البشير بموتى فلا تسّر ، نذير
أ ليس من كان مثلى إلى مصيرى يصير

و يقول :

ما ضّر شمس الضحى و الشمس طالعة
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

و يقول :

خذ من زمانـك ما صفا و دع الذى فيـه الكدر
فالعمر أقصر من معـــا ينـة الزمان على الغير

و يقول :

منافسة الفتـى فيما يزول على نقصان همته دليـــل
و مختار القليل أقل منـه و كل فوائد الدنيا قليـل

و غير ذلك من الأبيات الكثيرة التى لوسقناها جميعاً لطال بنا الكلام ، فاننا نرى أن جميع شعره يتضمن على الحكم و المعانى البليغـــة و النصائح اللطيفة مما يدل على أن منصوراً كان عميق النظر واسع الفكر ، يكتسب التجارب من الحياة و يسجلها فى أشعاره ، فهو ، الشاعر الحكيم ، الذى تعمق فى العلم ، و تفتح فى الشعر ، إنه عرض أمام الناس جميع ما تلقاه و تعلمه فى ثوب شعرى جذاب ، يأخذ الألباب و يستميل القلوب ،

و بدافع من هذه الثقافة الدينية كان منصور يكذب التنجيم الذى كان منتشراً بين طبقات الناس ، و يستخف الذين كانوا يؤمنون به ، يقول :

من كان يخشى زحـــلا أو كان يرجو المشترى
فاننى منـــه و إن كان أبى الأدنى برى

ثم يقول مشيراً إلى حكمة الله تعالى فى خلق النجوم

و ليس للنجم إلى ضـــ ـــرّ و لا نفع سبيـــل
إنما النجـــم على الأو قات و السمتِ دليـــل

و يقل :

قال المنجّم شيئا دعا إليه التوهّم
فلا نصدّق شيئا مما يقول المنجم
لو أن نجماً تكلم لقال صكّوا المنجم
لأنه قال جهلا بالغيب ما ليس يعلم

و من ذلك يظهر شدة حرصه على دينه ، و علومه الاسلامية الخالصة التى تنكر مثل هذه الأقوال التى انتشرت بين الناس ، و لا شك أن مثل هذا الرجل كان بعيداً كل البعد عن حياة اللهو التى جرفت أكثر شعراء مصر ، فكان هذا الشاعر يمثل طبقة الشعراء العلماء الذين لم يأخذوا بنصيب من تطور الحياة فى عصره . و كان يؤمن بالأخلاق و المثل العليا التى دعا إليها الاسلام ؛ و كان يدعو الناس إليها فى شعره . و الابيات الآتية تعبر خير تعبير عن اتجاهه الدينى و سلوكه المثالى ، يقول فى الاستغناء عن الناس و التوكل على الله تعالى فى معترك هذه الحياة :

قطعت رجائى من بنى آدم طرا فأصبحت من رق الرجاء لهم حرّا
و كيف يعيب الناس بالمنع مؤمن يرى النفع ممن يملك النفع و الضرّا
عليه اتكالى فى الشدائد كلها و حسبى به عند الشدائد لى ذخرا

و يقول محذراً من مصاحبة الفاسقين :

لا تلتين خليطا لفاسق أو كفور
فالقرب من ذين عا رٌ على الفتى الستور

و يقول مشيراً إلى أن البخل هو شر ما فى الانسان و يؤديه إلى أسفل المدارك :

ما فى البخيـــل انتفاع و الـكلب ينفع أهـله
فـنزه الـكلب عن أن ترى أخا البخل مثـله

و كذلك له أبيات أخـرى فى ذمّ البخل و البخيل ، فى بعضها حـكى ما لاقاه هو عند زيارته لصديق بخيل .

و بعد أن درسنا حياة منصور الفقيه و شعره ، نحبّ أن نشير إلى رأى لابن الجوزى أبداه تجاه منصور و شعره ، يقول فى ترجمته له : « و يظهر فى شعره التشيّع » . وهذا الرأى نفسـه قد نقله ابن كثير عن ابن الجوزى بحيث يبدو أنه أيضاً مقتنع بما ذهب إليه ابن الجوزى .

أما نحن فلا نعلم مصدراً لهـذا الرأى ، و ليس عندنا من الشواهد ما يصدقه ، فابن الجوزى قد عاش فى القرن السادس الهجرى ، فبينـــه و بـين منصور نحو قرنـين من الزمن ، و لو كان الأمر كما زعم ابن الجوزى كان من المعقول أن يشير إليه من ترجم لمنصور قبل ابن الجوزى ،

ثم الذى رُوينا من أشعاره لا نجد فيه ما يحمل على تصديق زعم ابن الجوزى ، فليس عليه مسحة من التشيع و الانحراف عن مذهب أهل السنة بل الجميع يدعو إلى التمسك بالدين والسلوك الخلق القويم ، و لو فرضنا صحة رأى ابن الجوزى فمعنى ذلك أن هذا النوع من أشعار منصور لم يصل إلينا بل ضاع فيما ضاع من الآثار الأدبية و العلمية الأخرى . و هذا نقدم نبذة من شعره :

تراوح ما ليس يرضى الاله و تغد و عليـــه و تخشى البلا[1]

١- هو مصدر بلى من باب سمع . يقال : بلى الثوب . أى خلق و رث .

كفعل النساء إذا ما أسأنَ ... و عاتبتهن أطلن البكا
ولو كنتَ داويت قرح الذنوب ... بترك الذنوب حمدت الدوا [١]

° ° °

إن بنى دهرنا أفاعٍ ... ليس لما ساورَت [٢] طبيبُ
فلا يكن فيك بعد هذا ... لواحد منهم نصيبُ [٣]

° ° °

قد ضرب البواب و الحاجب ... و قهرمان [٤] الدار و الكاتب
و أصبح الصاحب من بينهم ... بحيث لا جارٌ و لا صاحبُ
و اعتاضت الناهد من بعده ... ألفا سواه و كذا الكاعبُ
و جدّ فى تبذير ما لم يزل ... يجمعه وارثه اللاعب
فكن من الدنيا على أهبةٍ ... يا زاهداً فيها و يا راغب
فانها أم لأبنائها ... منها عدوٌ قاتلٌ سالبُ [٥]

° ° °

من لم تغظه المنايا ... و لم يعظه الكتاب

١- بهجة المجالس ٢ : ٢٧٤ .
٢- ساوره : أخذ برأسه و وثب عليه . ٣- بهجة المجالس ٢ : ٤٥ .
٤- القهرمان : الوكيل أو أمين الدخل و الخرج ، و الجمع قهارمة ، و الكلمة دخيل .
٥- بهجة المجالس ٢ : ٢٥٦ .

فليس ينجع [١] فيـــه ولو تعتّى عتـــاب [٢]

* * *

كذبت إن أنا ضمنّـ ـتُ محسناً أو مصيبـا
من لا يعـــاشر إلا منجّـماً أو طبيبـــا [٣]

* * *

يا من دعته الغوانى عـ ـمّا و قد كان شبّـا
قد كنت وِرداً جنياً فصرت وِرداً مرّبا [٤]

* * *

لا تكثرنّ من الفكاهة فى حديثك و الدعابه
ودع الغريب من الكلا م لأهله عند الخطابه
و إذا أصبت فكل ما أغفلته دون الاصابه [٥]

* * *

واخرش إذا خفيت سبيـ ـلُ الحق عنك عن الاجابه

١- والذى يحفظ أستاذى الدكتور مختار أحمد هو : « أمور الحق » .
٢- نجع نجعاً و نجوعاً (ف) فيه الدواء : دخل فأثر فيه أو ظهر أثره .
٣- بهجة المجالس ٢ : ٢٧٧ . ٤- بهجة المجالس ١ : ٨٤.
٥- بهجة المجالس ٢ : ٢٢٠ ، و المربى : معمول بالرب و هو سلافة خثارة كل ثمر بعد اعتصارها:
٦- بهجة المجالس ١ : ١٢٧ .

فأقل ما يجزى الفتى بسكونه عز المهابه [١]

* * *

إن الحجاب عذاب وليس لى بالعذاب
كلا فلا تعذلونى على اتصال اجتنابى [٢]

* * *

و قال نبينا فيما رواه عن الرحمان فى علم الغيوب
محال أن ينال العفو من لا يمن به على أهل الذنوب [٣]

* * *

هبنى خضبت [٤] لشيبى [٥] تسترا عن حبيبى
فما أروح و أغدو إلا بوجه مريب [٦]

* * *

ليس الأديب أخا الروا يةِ للنوادر و الغريب

١- بهجة المجالس ١: ١٤ .
٢- بهجة المجالس ١ : ٥٦ .
٣- بهجة المجالس ١ : ٨٠ .
٤- فى «ل» : سترت . (حرف «ل» تدل على النسخة الأخرى لبهجة المجالس التى وصلت إلينا بواسطة ألمانيا .
٥- فى «ل» مشيبى .
٦- بهجة المجالس ٢ : ٢١١ .

و لشعر شيخ المحدثيـ ـن أبي نواس أوحبيب [١]
بل ذو التفضل و المرو ـةِ والعفاف هو الأديب

فضل التقى أفضل من فضل اليسان [٢] والحسب
إذا هما لم يجمعـــا إلى العفاف و الأدب [٣]

١- بهجة المجالس ١ : ١٦ . و جامع بيان العلم ٢ : ٧ .
٢- فى « ل » اللسان .
٣- بهجة المجالس ٢ : ٢٨ ، ١٧١ .

اطوار الأدب القصصى عند العرب

الدكتور شفيق أحمد خان الندوى*

القصة فى الأدب العربى قسمان : قسم موضوع ، و قسم منقول أو بعبارة أخرى قصص مؤلفة ، و قصص دخيلة أو مترجمة و من النوع الأول قصص « عنترة » ، و « مجنون ليلى » و « سيرة بنى هلال » ، و ما ماثلها و من النوع الثانى : « كليلة و دمنة » و « الف ليلة و ليلة » و نحوهما .

و معظم القصص الموضوعة لها أصل تاريخى ، طبقاً لرواية محمد تيمور[1] فاشخاصها ابطال حرب أو حب حقيقيون ، و حوادثها الرئيسية التى بنيت عليها حوادث وقعت فى التاريخ ، و لكنها تغيرت بمرور الزمن ، عند ما تناقلها الالسن بالرواية ، فكان الراوى يتناول القصة من مصدرها و يرويها للناس على حب هواه ، فكان راوياً و مؤلفاً فى الوقت نفسه ، و معظم هذه القصص مجهولة المؤلف . أما التى تحمل اسم مؤلف معين فانتسابها إليه كانتساب بعض الملاحم القديمة لأصحابها ، فالمؤلف لم يكن سوى جامع

---

* أستاذ المساعد فى قسم اللغة العربية بالجامعة الملية الاسلامية نيو دلهى . و هو الآن درس فى المملكة العربية السعودية .

[1] محمد تيمور : دراسات فى القصة و المرح ، مكتب الآداب القاهرة بدون التاريخ ، (بتلخيص و تصرف بسيط) .

لاخبار هذه القصة و راويها ، بعد تنقيح و تعديل ، و كثيراً ما كانت تنسب هذه القصص لرواية مشهورين ، امثال « الأصمعى » . . .

أما القصص المنقولة ، فمنها ما نقل من الأصل فى امانة مثل « كليلة و دمنة » ، و منها ما لحقه التغير — أما بالاضافة أو الحذف ، أو الصقل أو التهذيب حتى كاد يصبح غريباً عن أصله — مثل « الف ليلة و ليلة » .

أما اشهر القصص العربية فهى القصص الغرامية ، فى عصر بنى أمية : تعتبر هذه القصص أحد اركان الفن القصصى العربى ، و هى بالرغم مما فيها من خلط فى التاريخ ، و مغالاة فى الوصف و نقص فى التاليف — تحتوى على شىء من مقومات القصة الفنية . . . و اهم هذه القصص ثلاث : « مجنون ليلى » ، و « جميل بثينـــة » ، و قيس لبنى و ابطالها مذكورون فى التاريخ ، و لكن منهم من اختلف فيه كالمجنون « قيس بن الملوح » ، فقد اختلف المؤرخون فى شخصيته اختلافاً كبيراً ، يدعونا إلى الشك فى وجوه . أما « جميل ابن معمر » ، اى « جميل بثينـــة » ، و « قيس بن ذريح ، قيس لبنى » ، فليس هناك ما يدعو إلى الشك فى وجودهما ، و ان كنا ننكر شخصيتهما ، على المثل الذى رسمه لنا المؤلفون و يلاحظ ان هذه القصص الثلاث قد إشتقت من ينبوع واحد هو ينبوع البادية . و عالجت موضوعاً واحـــداً هو الحب العذرى ، فبطلها دائماً بدوى ، يعيش عيشة الفطرة ، ويتحلى بصفات طيبـــة منها الكرم ، والشمم ، و العفـــة و الشهامة . و كل هذه الصفات موطنها البادية . أما حبه فحب عنيف طاهر ملك حياته و عقله . محفوف بالمصاعب و التضحيات . و تكاد تشترك القصص الثلاث فى الحوادث نفسها التى

بنيت عليها القصة فهناك حب مبرح بين اثنين ، ثم ظروف قاهرة تحتم عليهما الفرقة ثم موت كموت الشهداء . . . و لكن هناك بعض الاختلاف فى التفاصيل و خصوصاً فى قصة « قيس لبنى » التى يمكننا ان نعتبرها اقرب القصص الثلاث إلى الفن الصحيح فقد عالج فيها مؤلفها أو مؤلفوها موضوع الغيرة . غير الام من زوج ابنتها . و أخذ الشعراء منهم يعبرون عن احساسهم بأشعار غزلية كلها مثل عليا فى الطهر و العفاف و التضحية . . و أخذت تحاك حول هذا الشعر أنواع من القصص ابطالها مزاج من الحقيقة و الخيال و من ثم ظهرت قصة المجنون و ما ماثلها .

و لا يمكننا أن نغفل إلى جانب هذا النوع من قصص الحب العذرى نوعاً آخر و لكنه اقل أهمية من سابقه — هو قصص « الحب الخليع » و امام هذا النوع « عمر بن أبى ربيعة » الشاعر مبدع الأدب المكشوف فى ذلك العصر . و السبب فى ظهوره يعود إلى حياة الترف و الغنى بجنوحه مع حياة البطالة الاضطرارية التى كان يعيشها أهل الحضر ، من زعماء الحجازيين و امرائهم كان الامويون فى ذلك يتبعون مع هؤلاء الزعماء سياسة المال فكانوا يغدقون عليهم العطايا و يقررون لهم المرتبات الضخمة و لكنهم إلى جانب كانوا ذلك كانوا يحرمون عليهم الاشتغال بالسياسة و يبعدونهم عن مناصب الدولة . . . و كانت السبايا من الفارسيات والروميات و التركيات و من ماثلهن قد ملأن بيوت هؤلاء الأمراء الحضريين من سكان الحجاز على اثر الفتوحات العظيمة التى تمت فى سرعة تدعو إلى الذهول فانتقل مع هؤلاء السبايا و كان معظمهن من البيوتات الكبيرة الشىء

الـكـثير من مدنية الأمم الحـكومـة فاجتمع عند أهل الحضر من الحجازيـين الـثراء و الـترف و المرأة مع البطالة الاضطرارية فنتج عن ذلـك الاسراف فى اللهو ومن ثم جاء الأدب المـكشوف صورة لهذه البيئة الجديدة .

ننتقل من ذلك إلى نوع آخر من الأدب القصصى يسمى قصص الحرب و البطولة أو ، قصص العوام ، و منها عنـترة و ، الزير سالم ، و ، بنى هلال ، و ، البطال ، و ، القصة المعروفة ، بالأميرة ذات السهمة ، و ، البراق ، و التى منها ، حرب البسوس ، و ، سيف بن ذى يزن ، و ، فـيروز شاه ، و ما ماثلها . . . و قد سميت بقصص الحرب و البـطولة لأنها تروى لنا بعض وقائع الحرب ، فى العهـــد الجاهلى و ما يليـه ، و تتحدث لنا عن شخصيات اشتهـرت بالبطولة فى الحرب كـ « عنـترة » أما تسميتها بقصص العوام ، فلانها اشتهرت بـين العامة أكـثر من انتشارها بـين الخاصـة أو بالأخرى : لأنها كـتبت للعامة ! و هى قصص تعتمـد فى هيـكلها على حوادث التاريخ أما نشأة هذه القصص فهى نشأة طبيعية بحته فان الناس فى كل امة يحبون البطولة و الحرب ، يروون وقائها مفتخرين بما حازوا من نصر فيهـا ممجدين أبطالها و كانت حياة العربى حياة نزاع وحرب فقبائلة دائماً فى شجار واخبار بطولته يؤخر بها تاريخه و من ثم أخذ الرواة يروون للناس هـذه الحوادث التاريخيـة ثم يضيفون إليها من عندهم ما ارادوا و أخذت القصص تحاك حول هذه الاخبـار شيئاً فشيئاً إلى أن انتهت إلى الحالة التى هى عليها الآن . . . و اشهر هذه القصص قصة ، عنـترة ، و قد عنى بها الافرنج فصاغ منهـا أحدهم رواية قصصية بالفرنسية . و قصة عنـترة العربية ارقى من اخواتها

لغة و شعراً تصور حياة العربى فى العهد الجاهلى و تروى لنا شيء من حروبه امتاز فيها من أبطال و تصف لنا شجاعته و كرمه و حبه و وفاء و تضحية . . و القصة من الوجهة التاريخية غير موثوق بها ففيها كثير من الخلط و الغلط و هى فوق ذلك مفككة الحوادث لا رابطة تربط بعضها ببعض و لكن نرى فيها بجانب ذلك — بعض مواقف روائيه رائعة منها الموقف الذى يموت فيه « عنترة » بسهم مسموم فعند ما يشعر بدنومنيته ، و يخشى على جيشه الهزيمة يرع إلى جواده فيمتطيه و يعتمد على رمحه فيظنه حياً يدير رحى القتال فيرهبه و لا يجر على الدنومنه . . .

و الآن ننتقل إلى قسم آخر من القصص الموضوعة و نسميه بالقصص العلمية و الفلسفية . فالغرض الذى يرمى إليه المؤلف ـ فى كتابة هذه القصص هو عرض فكرته الفلسفية أو نظريته العلمية و من ثم كانت الصياغة القصصية فى المرتبة الثانية و جميع هذه الكتب الفت بلغة سليمة فمؤلفوها من العلماء و قد كتبوها للخاصه من الناس و اشهر هذه القصص : قصة « حى بن يقظان » و « الانسان و الحيوان » و « الصادح و الباغم » و « رسالة الغفران » و المقامات . . . و « حى بن يقظان » و هموِل « ابن طفيل » أظهر فيه مؤلفه شخصية عجيبة هى اقرب الشخصيات إلى « طرزان » فهو ابن الغابة و ربيبها . عاش على الفطرة و أخذ العلم من الطبيعة . و الطريف فى هذه القصة تلك النظريات العلمية التى وفد « حى بن يقظان » إلى اكتشافها فى التشريح و غيره . . . و لا يستبعد أن يكون « ديفو » مؤلف « روبنون كروز » قد تأثر بفكرة مؤلفها العربى فنسج على طريقته فى وصف الحياة

الفطرية . أما كتاب (الانسان و الحيوان) فقد الفه (اخوان الصفا) فى القرن الرابع عشر الهجرى و جلوه ذيلا لرسائلهم المشهورة و هو يحوى مناظرات بين الحيوان و الانسان و قد حذا فيه مؤلفوه حذو (كليلة و دمنة) فى وضع الحكمة على السنة الحيوان و لكنهم لم يقتصروا على الحكمة بل خاضوا فى العلوم الطبيـــة و تكلموا عن ميزات الانسان و الحيوان و الكتاب يمتاز بتلك الصبغة العلمية الواضحة تلك الصبغة التى اشتهر بها الاخوان فى رسائلهم أما الكتاب (الصادح و الباغم) فهو يماثل قصص لافونتين الفرنسى ، و قد قال عنـــه صاحب « كشف الظنون » انه منظومة على أسلوب كليلة و دمنة فى الفى بيت ، لابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤ هجرية فيه فصائد و اراجيز . والظاهر ان كتاب « كليلة و دمنة » قد ترك اثراً بعيد المدى فى الأدب العربى فقد نقله كتاب كثيرون غير « ابن المقفع » و نظمه عدة شعراء من بينهم ابن الهبارية نفسه فى كتاب سماه نتائج السلطنة ، فى كتاب كليلة و دمنة ثم نحا نحوه فى كتابه الذى نقلنا ما قيل فى صفتـــه و قد رأينا كيف أن « اخوان الصفاء » قد الفوا كتابهم « الانسان و الحيوان » متأثرين « كليلة و دمنة » ثم جاء « ابن عرب شاه » المتوفى سنـه ٩٠١ هجرية فالف كتابه « فاكهة الخلفاء » نحا فيه أيضاً نحو « كليلة و دمنة » فى كثير من قصصه . نذكر ذلك لنبين إلى أى حد تأثرت القصص العربية الموضوعة التى عنيت بالحكمة و الفلسفه و العلم ، بكتاب كليلة و دمنـــة و هو من الكتب المنقولة عن الأدب الهندى . .

و الآن يأتى دور « المقامات » :

حينما اتسعت المملكة الاسلاميـــة على أثر الفتوحات و دخلت فى

الأمة العربية اجناس مختلفة أخذ الدخيل — من الكلمات و الاصطلاحات — يغير على اللغه الفصيحى ، فخاف جماعة من اللغويين و النحاة أن يصيب اللغه الوهن و الفساد فقاموا ينبهون الناس إلى الخطأ و يرشد و نهم إلى الصواب و بدأ الكتاب يحسون بضعفهم امام هجمات اللغه العامية فحرصوا جهدهم أن يكتبوا صحيحاً و اندفعوا ينتقون الكلمات انتقاء و يتخيرون الأساليب تخيراً . و تمادوا فى ذلك كثيراً ، و قامت المنافه بينهم كل كاتب يريد أن يتفوق على زميله فى الانشاء فاهتموا بالعرض دون الجوهر . . . و من هنا شاعت المحسنات اللفظية و ظهرت قواعد جويدة فى البلاغة ، تعتمد على التزوين و البرقشة أكثر من اعتمادها على الفكرة . . . و غالى الكتاب فى السجع حتى أصبح كل ما يكتبونه مسجوعاً . . . و تعشقوا الألفاظ المهجورة و الأساليب الغريبة ليؤثروا بها فى القراء و يظهروا لهم مبلغ تضلعهم فى اللغة . . . فى ذلك الجو نشأت المقامات . و هى شبيه اقاصيص ، يتخذ لها المؤلف بطلاً وهمياً يروى على لسانه ما شاهده من حوادث و ما سمعه من اخبار . . . و المقامة ليس لها أى قيمة قصصية و إن كانت وضعت فى القالب القصصى لأنها خلت من اهم مميزات القصة و هو الحادثة أو العقدة . . . كذلك خلت من الشخصيات الروائية الممتازة ، و تحليل نفسياتها و درس اخلاقها . . . و الغرض الذى رمى إليه مؤلف « المقامه » هو عرض الموعظة أو النكتة المستملحة و الالغاز اللغوية و النحوية كل ذلك فى لغة ألفاظها جزلة غريبة و أسلوب كله سجع و قد نشأ هذا الفن الجديد من اتصال العرب بالفرس و تأثرهم بحضارتهم التى شملت

فيما شملتـــه ، الآداب . . . و أول من برع فى كتابه المقامات بديع الزمان الهمدانى المتوفى عام ٣٩٨هـ ، ثم اشتهر بعده « الحريرى » المتوفى سنة ٥١٦هـ ثم الزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨هـ . و انتشر هذا النوع انتشاراً كبيراً حتى كان للكتاب العصريين أثر كبير فيه فقد كتب الشيخ ناصيف اليازجى المتوفى عام ١٨٧١م ، كتابه « مجمع البحرين » و هو مجموعة مقامات . على نسق مقامات « الحريرى » و « الهمدانى » و كتب أحد فارس الشدياق كتابه الفارياق و هو متأثر نحو المقامـــة تأثراً عظيماً . و ظهر فى العصر المتأخر كتاب « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى ، و « ليالى سطيح » لحافظ إبراهيم و هما على نمط المقامات ، و لكن الأول تفوق على سواه من الكتب المقامية إذ خرج فيها عن جو المقامة و اقترب من القصة الفنية بما عالج فيها من شخصيات و أوصاف و حوادث . . . أما « رسالة الغفران » للمعرى ، فلا يبعد أن يكون مؤلفها قد كتبها متأثراً بجو المقامة .فقد توفى « المعرى » سنة ٤٤٩هـ أى بعد وفاة « الهمدانى » باحدى و خمسين سنـــة . و رسالة الغفران تفضل « المقامات » بمميزات عدة و لعل ذلك عائد إلى أن المقامة قد تمكنت من فكرة « المعرى » واستقرت فيه ولكنه تمثلها واخرجها فى صورة أخرى حية ناضجة و فى الرسالة كثير من السجع و الأشعار العويصة المعانى الغريبة الألفاظ و فيها نقد لشعراء الجاهليـــة و الاسلام و أدبائهما ، و فيها ذكر للرواة و النحاة و فيها أيضاً تصوير للمجتمع العربى ، فى مختلف عصوره و الشىء الكثير من هذا من موضوعات المقامة و لكن « المعرى » قد عالجها على طريقة مبتكرة . أما ما امتاز به فى رسالته و تفوق

به على المقامة تفوقاً محسوساً فذلك بسبب خياله الخصب الواسع من جهة و سخريته اللاذعة الخفية من جهة أخرى فأى خيال أكبر من ذلك الذى يصور لنا الجحيم و الجنة و ما فيها من عذاب و نعيم ، تصويراً رائعاً يملك القارىء لبه أما سخريته فى هذه الرسالة فقريبة بسخرية « اناتول فرانس » القصص الفرنسى الشهير فكلاهما تهكم لاذع لا يشعر به إلا من قرأ ما بين السطور . . . و « رسالة الغفران قصة تخيل فيها المعرى ذهاب رجل إلى الجنة و رويته لجهنم و ما شاهد فيها من شعراء و أدباء و ما جرى بينه و بينهم من محاورات فى الأدب و الشعر و اللغة و ما قابله فى الجنة . و من الناس لم يكن ينتظر نزولهم بها فسألهم : بم غفر الله لهم ، . . فذكروا له فيما ذكروا أشعاراً قالوها فغفر الله لهم من اجلها و كانت جوازهم إلى دار النعيم لذلك سميت « رسالة الغفران » اننا نجد تماثل الفكرة بين « رسالة المعرى » و كوميدية دانتى الالهية و احتمال تاثر الأخير بالأولى كذلك يوجد تشابه بين موضوع « المعرى » و قصيدة ملتن الشاعر الانجليزى المسماة « بالفردوس المفقود » و بهذه المناسبة نذكر انه على أثر ازدياد صلة الغرب بالشوق تأثر الأدب الغربى بالأدب العربى و خصوصاً بكتابى « الف ليلة » و « كليلة و دمنة » فاقاصيص « هانس اندرسن الدنماركى » و « رحلات جلفر » لسويفت « الانجليزى » وسياحات جيل بلاس (لوساج) الفرنسى و كتاب (الغابة لـ) رودیار كبلنغ كلها تحمل شيئاً من روح القصة العربيه » .

و الآن و قد انتهياً من القصص العربية الموضوعة سنتحدث عن

القصص العربية المترجمة — و اهمها اثنتان : (الف ليلة) و (كليلة ودمنة) أما كتاب « الف ليلة و ليلة » فيحتوى على ثلاث مجموعات مختلفة : المجموعة الأولى كتاب « الف خرافـــة » الفارسى المسمى « هزار افسانة » و هو مجموعة قصص خرافية فارسية و هندية . . . و هذه المجموعة لحقها كثير من التغير على يد النقلة و الرواة ، فخرجت عن أصلها . والمجموعة الثانية : قصص كتبها على نمط القصص السابقة مؤلفون من العرب بعضهم من (بغـــداد) و الآخرون من (مصر) و قد اشترك بعض (اليهود) فى تأليف هذه المجموعة ، و المجموعة الثالثة : ما جمعه أبو عبـــد الله بن عبدوس الجهشيارى (صاحب كتاب) (الوزراء و الكتاب) من حكايات و دوادر ، للعرب و الفرس و الروم ، كانت تروى فى حفلات السمر و المنادمـــة . . . هذه المجموعات الثلاث قد انصهرت فى بوتقة الزمن ، و على يد النقلة و الرواة ، حتى وصلت إلينا فى كتاب واحد يكاد يكون له طابع واحد هو كتاب « الف ليلة و ليلة ، و لكن الناقد الخبير ، و الباحث المدقق ، و المحلل اليقظ يستطيع أن يرجع كل قصة فى الكتاب إلى أصلها . و لدينا وسيلتان تعيناننا فى هذا العمل هما : الأسلوب و الخيال . فالقصص ذات الأسلوب العربى الفصيح ، تدل على أنها كتبت فى العصر الأول حينما كانت اللغة خاليـــة من التصنع . و القصص ذات الأسلوب الركيك تدل على العصر الذى كتبت فيه فيما بعد . و نحن واجدون فى هذه القصص ، الخيال الفارسى والخيال اليهودى و الخيال العربى الصميم . و هلم جرا . . . والكتاب من الناحية القصصية يعتبر من كتب القصص العالميـــة . و قد ترجم إلى

معظم اللغات الحيـــه ، و هو فخر الأدب القصصى العربى بلا مراء و أكثر قصصـــه مشمعة بالاسرار مملوة بالمشوقات . لا يشعر القارىء بملل و شهرتها العالمية تعود إلى عاملين هامين ، هماسمة الخيال و قونه و براعة الوصف فى رسم الشخصيات و البيئة فنحن نشعر و نحن نقرؤها اننا نعيش حقاً فى تلك البيئة الشرقية الاسلامية ، ذات السحر العجيب نعاشر أهلها و نستمع باحلامها أما كتاب كليلة و دمنة فقد ترجمه عن الفارسية الكاتب البليغ « عبد الله ابن المقفع » فى أسلوب من ابلغ الأساليب و الكتاب أصله هنـــدى وضعه « بيديا » الفيلسوف رغبة منـــه فى اصلاح الملك « دبشليم » العامل المستبد . و جعل اقاصيصه على ألسنة الطيور و الحيوان لاعتقاد البراهمة القديم بتناسخ الأرواح و رمى إلى بث الموعظـــة و الحكمة و الحث على الفضيلة و التنفير من الرذيلة [١] .

القصة العربيـــه الحديثة فن جديد فى الأدب العربى المعاصر لم يتجاوز ميلاد منتصف القرن التاسع عشر حينما بدأ فى صورة المقـــامات و لم يلبث ان دخل مرحلة التعريب و التعصير فالترجمـــة و لم يكتف على ذلك بل سرعان ما تعدى إلى وضع و تاليف القصة العصرية كفن من الفنون الأدبية المستقلة الراقيـــة ثم ظهرت القصه الطويلة (الرواية) بنوعيها التاريخيـــة و الاجتماعية ، فينقسم تاريخ القصص فى النهضه الحديثة إلى اطوار مختلفة .

١- موسى سليمان : الأدب القصصى عند العرب : دار الكتاب اللبنانى بـبيروت ١٩٦٠ .

٢- حنا الفاخورى : الجديد فى الأدب العربى و تاريخـــه (الخامسة) مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٦٢ .

الطور الأول — طور المقامات :

يبتدىء حوالى أواسط القرن التاسع عشر و هو طور لم يكن للقصه فيه كيان مستقل بل كانت فيه واصطه تتخذ لتحقيق غايات لغوية و بيانية ينسج فيها الأدباء على منوال الحريرى و الهمدانى و قد ظهرت المقامات فى لبنان و مصر فى وقت مبكر ، و أشهرها فى هذه الفترة .

الساقى على الساق (١٨٥٥) لأحمد فارس شدياق بجمع البحرين (١٨٥٦) لناصيف اليازجى ، علم الدين (١٨٩٣) لعلى مبارك ، حديث عيسى بن هشام (١٨٩٨) لمحمد المويلحى ليالى سطيح (١٩٠٦) لحافظ إبراهيم و ليالى الروح الحائرة (لطفى جمعة) ورقة الآس (لأحمد شوقى) و الوجديات (لفريدى وجدى) .

تتخذ هذه المقامات أسلوب الصياغة القديم المسجوع على نحو يبلغ فيه التقليد مداه أو يضعف قليلاً ، مع مضمون عصرى يتصل بحياة كتاب هذه القصص و اجوائهم و عصورهم ، فاليازجى فى مجمع البحرين يتحدث عن القاهرة و الاسكندرية و دمياط كما تناول الشدياق فى كتابه الساق على الساق الصور الاجتماعيـــة و قضايا المزوبة و نقد المجتمع الشرقى و رجال الدين .

و فى قصة علم الدين (لعلى مبارك) محاولة لتصوير حياة الأزهر و حفلات الزواج و المراسم و الأعياد على نحو يمتزج فيه فن المقامـــة مع مضمون مقتبس من الغرب مع بساطـــة الأسلوب و خلوها من البديع مع الاحتفاظ بروح السجع كما تناولت مقامات المويلحى حياة المجتمع العصرى

فى القرن التاسع عشر و التقاليد و العادات و صورة عصر الاقطاع التركى، و صور حافظ إبراهيم فى مقاماته عيوب الاستعمار و اهمال تربيـة المرأة و التعليم العالى و ضحايا التبذل من أثرياء الريف و نقد التمثيل الرخيص الخليع ، أما شوقى فقد تأثر بألف ليلة و ليلة فصور عالماً فيه الحب والخيانة و المغامرة ، و اختلاط الحب بالدسيسة و البلاط و قصور الملوك . و ليالى الروح الحائرة « لطفى جمعه » سار على طريقة المقامـة دون أن يلجأ إلى السجع مع غلبة الشعر المنثور ، و غلبة انتقاد المدرسة السورية المتأمركه ، و المتحدث عنـه روح غير بحمة و هو يجرى على انتقاد أحوال المجتمع العصرى .

و هكذا تتجه القصة فى مرحلة المقامـة إلى النقد الاجتماعى متأثرة بالقصة الأوربية على النحو الذى يفهمـه على مبارك الذى يرى إن النفوس كثيراً ما تميل إلى السير و القصص و ملح الكلام يخالف الفنون البحتـة والعلوم المحضة . و قد نعرض عنها فى كثير من الأحيان و لا سيما عند السآمة و الملل من كثرة الاشتغال و فى أوقات عدم حكاية لطيفـة ينشط الناظر فيها إلى مطالعتها و يرغب فيها رغبته فيما كان من هذا القبيل فيجد فى طريقه تلك الفوائد ينالها عفواً بلاعناء حرصاً على تعميم الفائدة و المنفعة .

تكاد تكون قصة عيسى بن هشام مقدمة للقصة فى تصوراتها و طريقتها حيث تختلف عن قصة علم الدين التى غلب عليها الرد و ميزتها نقد المجتمع مع السخرية و الفكاهة و دراسة المشاكل الاجتماعية :

الطور الثانى — طور الترجمة و التعريب :

لم تلبث القصة العربية ان انتقلت إلى مرحلة أخرى نحو الكمال حيث بدأت مرحلة التعريب و هى مرحلة متداخلة بين التعريب و التوليـــد ، و قوامهـا : الربط بين القصص الشعبى التقليدى و القصص الغربى و من ابرز أعلام التعريب : محمـــد عثمان جلال و هارون نقاش و أديب اسحاق و نجيب حداد .

و تعد قصة « مغامرات تليماك » التى مصرها أو عربها رفاعة الطهطاوى تحت إسم « وقائع الأفلاك فى حوادث تليماك » علامـــة على هذا الا تجاه الذى سار فيه من بعد محمد عثمان جلال و قد تحرر رفاعة من جو القصـــة الفرنسية حيث عرب الاسماء و أدخل لونا من الف ليلة و ليلة و لم يتقيد فى المرحلة التى سبقت مرحلة الترجمة بالأصل المترجم ومصر أسماء الأعلام و استبدال بالصفات الفرنسية المسيحية صفات عربية اسلامية و قد استهدف من ذلك النقـــد عن طريق الرمز و استعمال القصة للكشف عن العيوب الاجتماعيـــة .

و فى هذه المرحلة تحرر من السجع و الزخرف ، و اتصل من الناحيـــة الفنية بالقصة الغربية . ولم تستمر مرحلة التعريب طويلاً فقد حلت فترة الترجمة على أثر ظهور عدد كبير من كتاب لبنان و مصر الذين عكفوا على ترجمة القصة الغربيـــة — و الفرنسية بوجه خاص — على نحو لم تكمل فيه عناصر الترجمة الفنيه . و يمكن القول بأن أغلب المصريين كانوا يعملون فى ميدان المسرحية و يقدمون مسرحيات مصرية أو مصرة بتحويل شخصيات و بيئات

المسرحية الغربية إلى شخصيات و بيئات مصرية أو عربية .

فقد ترجم هارون نقاش قصص موليير و دروس المسرح الايطالى و كتب ثلاث مسرحيات هزليه . كما عرب خليل اليازجى المروءة و الوفاء و عرب نجيب حداد أكثر من ستة عشر رواية مسرحيـة أغلبهـا منقول يتصرف من كورنى و هيجو و دوماس شكسبير و ابرز أعلام مرحلة التعريب و التمصير محمد عثمان جلال (٩٨—١٨٩٣) الذى يمثل قصة حركة المصير الواسعة النطاق التى استهدفت الربط بين القصص الشعبى التقليدى و القصص الغربى و هو من ابناء مدرسة الألسن (١٨٣١) و تلاميذ رفاعة الطهطاوى و هو امتداد له فى طريقته التى اتبعها فى قصة « مغامرات تليماك » و هى تحويل جو القصة الغربى إلى جو شرقى مع تغيير الاسماء و الأماكن و الأخلاق المتصلة بشخصيات القصة . و تحويل الصور الغربيـة إلى صور شرقية عربية و قد نقل على هذ النحو :

- بول و فرجينى باسم « الأمانى و المحنـة فى حديث قبول ورد جنة » (١٢٨٨) .
- خرافات لفونتين باسم « العيون اليواقظ فى الامثال و الحكم و المواعظ (١٢٩٣ هـ) .
- طرطوف لموليير و غيرها مآس (راسين) بمجموعة الروايات المفيدة فى علم التراجيدة (١٣١٩ هـ) .

و قد استعمل عثمان جلال اللغة العامية و الزجل و أدخل الفكاهات الشعبيـة و الأمثال السائرة على الالسن و اتخذ القصة وسيلة تهذيبية لبث

المعرفـــة . و اهم كـتبه « العيون اليواقظ » عن خرافات لافونتين و هى قصص على لسان العجماوات تدعو لمثل اخلاقية استهدف فيها جمع الأمثال فى نظم مبسط لرد الحكاية . عن لافونتين (الخرافات) و قد مهد له بمقدمة شرح فيها منهجه قال :

« تخيرت كـتاباً من اشهر ما فى اللغة الفرنساوية و ترجمته باللغـــة العربيـة و هو فى هذا المعنـى القدوة ، و من أراد أن يتأدب أسوة لما احتوى لما احتوى عليه من الحكم و الامثال و المعانى التـى هى كالسحر الحلال . و الماء العذب الزلال فافرغته فى أكواب من الألفاظ المتبلورة و اخترت له ما سهل من الـكلمات النيرة لتـكون قطوفه دانية . و محاسنة عن الزينة غالية و اخرجتـــه عن الطبائع الافرنجية على عوائد الأمـــة العربيه »[١] .

هذا و قد عرب مصطفى لطفى المنفلوطى عدداً من القصص الفرنسية ، من غير معرفته باللغة الفرنسيه و اللغات الأوربيه الأخرى ، فـكان يطلب إلى بعض اصدقائه أن يـترجموا له بعض الآثار الأدبيه ، ينقلونها هم أولاً ، ثم ينقلها إلى أسلوبه العاطفى الرصين . فـكانت طريقة المنفلوطى أن يأخذ ما ترجم له ، و يمصره تمصيراً و يعطى لنفســـه فى ذلك حرية واسعة حتـى لـكأنه يعيد كـتابته و تأليفه من جديد و هو تأليف يقوم على الاسترسال الانشائى و الانطلاق الوجدانى و الوعظ الاخلاقى . ومن القصص التـى أعاد تأليفها على هذا النحو قصة بول و فرجينى لبرناردين دى سان بيير و سماها الفضيلة

١ـ نقلا عن : أنور الجندى : أدب المرأة العربية . مطبعة الرسالة . القاهرة ، ص : ١٢٥ و ما بعدها .

و قصة ماجد و ابن أو تحت ظلال الزيزفون للافونس كار و قصة الشاعر أو سيرانودى برجراك لأدمون روستان ، و فى سبيل التاج لفرنسوكوبيه ، و بهذا الأسلوب من حرية التصرف و التحوير الواسع مصّر طائفة من القصص القصيرة لبعض الكتاب الفرنسيين ، و نشرها فى كتابه « العبرات » بعد أن أضاف إليها بعض قصص من تأليفه و جميعها قصص حزنية باكية [١] :

و تأثر بهذا الاتجاه حافظ إبراهيم فى ترجمة البؤساء لهوجو ، و الترجمة عنده نوع من التلخيص دون التقيد بالنص الأصلى مع الاحتفاظ بالمعالم الرئيسية للقصة و كذلك فعل أحمد حسن الزيات الذى تأثر باتجاه المنفلوطى فترجم الأم فرتر لجوته ورو فائيل للامرتين و قد عرف بدقة الترجمة و جمال الأسلوب و يجرى هذا التيار كله فى اتجاه الأدب الفرنسى . هكذا لقد اتسع نطاق الترجمة و برز فيها عدد كبير من الكتاب و كان ابرزهم طونيوس عبده ، و هارون النقاش و يعقوب صنوع . و قد عرف المنفلوطى بالترجمة مع التصرف فى العبارة عن الأصل وجو القصة و أغلب القصص التى ترجمت سواء للقراة أو للمسرح غلبت عليها الترجمة السقيمة ولم يرع فى اختيارها حالة مصر الاجتماعية ولا حالة الثقافة العامة و لا الذوق الأدبى للبلاد .

الطور الثالث — طور التأليف :

كانت أعمال المقامات و التعريب و التمصير و الترجمة مقدمة لتأليف القصة العربية المعاصرة . و باجماع المؤرخين و الباحثين ان سليم البستانى

١ـ شوقى ضيف : الأدب العربى المعاصر فى مصر (دار المعارف) القاهرة ، ط/٧ ١٩٧٩ ، ص: ٢٢٩

اللبنانى (١٨٤٨—١٨٨٤) هو أول من كتب الرواية العربيه المستقلة عام ١٨٧١ و هى رواية زنوبيا التاريخيـــة ، حول الصراع الذى قام بين ملكة تدمر و الرومان فى القرن الثالث ، و نشرها سلسلة فى مجلة « الجنان » و قدم رواية أخرى « الهيام فى جنان الشام » و هى تعتمد على الحوادث الضخمـــة و المخاطرات العجيبـة كما أجمع الباحثون على أن المحاولات الأولى للقصـــة القصيرة ظهرت على يد عبد الله نديم المصرى (١٨٤٢—١٨٩٨م) فى جريدته « التنكيت و التكبيت » و فى هذا الطور الذى يبتـــدىء فى أوائل الربع الأخير من القرن التاسع عشر و ينتهى فى مطلع العقد الثانى من القرن العشرين خرجت القصة تماماً عن أسلوب المقامة و أصبحت نوعاً مستقلاً من أنواع الأدب بعد ان ظهرت أول أمرها مترجمة فمقتبسة ثم موضوعة كما ذكرناها آنفاً .

و أجمع المؤرخون على أن رواية « زينب » (١٩١٤) هى أول رواية ناضجة و مكتملة من حيث العناصر القصصية والشروط الفنية الحديثة . أما بالنسبـــة للقصة القصيرة فقصة محمد تيمور « فى القطار » التى ظهرت فى جريدة السفور سنـــة ١٩١٧ هى أول قصة قصيرة ناضجة مستكملة للعناصر الاساسية فى هذا الفن : بعد أقصوصة تلقائية لعبد الله نديم بعنوان « عربى تفرنج » وفقا للأستاذ عباس خضر الذى يرفض فكرة يوسف نجم القائلة بأن الأستاذ نعية سبق محمد تيمور بكتابة قصته القصيرة « العاقر » بحجة أن الأستاذ نجم يذكر فى كتابه « القصة فى الأدب العربى الحديث » أن قصة العاقر لميخائل نعيمـــه نشرت ١٩١٥ و لكنه لا يحدد اين نشرت و هى من مجموعه « كان ما كان .. التى نشرت مؤخراً [١] .

١ـ راجع : عباس خضر القصة القصيرة فى مصر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ ص: ١١٤ .

المديح النبوى . فناً شعرياً

سيد عطاء الرحمن جنيد القادرى *

اتجـه تقسيم الشعر فى أدبنا — على الأغلب إلى اعتبار الوزن و القافية و الرديف و غيرها ، و بذلك انحصرت أغراض الشعر فى القصيدة و الغزل و المديح و المثنوى و ما شابهها و من الواضح أن الناحية المعنوية ما روعيت فى هذا التقسيم مع أنها تستحق عناية أكثر و المحققون الذين تسموه أدبياً قد ألقوا الضوء على ألوانه الأخرى التى لا تختلف فى البحر و الوزن و القافيـة و الرديف عن ألوان الشعر السائدة ، و لكنها مختلفة بالنظر إلى المعنى . و نظراً لهذا التقسيم المعنوى يجب أن نفهم الأدب بجميع نواحيه مع ملاحظة ما قال المحققون فيه .

إن الثعالبى قد قسم الأدب فى ١٢ قسماً ، منها ما جعله أصلاً كالصرف و النحو و الاشتقاق و اللغة و القافية و العروض و المعانى والبيان و منها ما جعله فرعاً كعلم الخط و الانشاء و الشعر و التاريخ و نكتفى هنا بحد جامع موجز للأدب .

---

* أستاذ اللغة العربية الجامعة ناكفور .

١ـ ايج كورسان فى الدراسة الأدبية ص : ٢٤ و روح النقد الدكتور رشيد محى الدين زوتر ص : ٥ (فى الأردية) .

إن إبراز الشخصية الذهنية و الرومانية بالحروف يسمى أدباً ، و بالأخص شعرياً أو مسرحياً .

و هكذا يدخل الشعر فى نوع الأدب الذى يسمى بالفنون الجميلة ، و هى توفر للانسان الغذاء لروحى و العاطفى و الفكرى و الفنان يصور لعواطفه و انطباعاته تصويراً حياً مؤثراً منفعلا يهيج المشاعر و يثيرها ، فلا يلبث قلب الانسان و فكره إلا أن يتأثر به و قد جعل الفنون الجميلة للطبيعة و من الطبيعى أن الانسان حينئـــذ يترح بتأثير شىء ، و يقدم عواطف فرحه فى ثوب الألفاظ للآخرين فكأنه بهذا يقارب بين احساسيهم و بين الحقيقة الداخلية يكشف آثار الطبيعة المؤثرة لقلوب و أفكار الآخرين ، و هذا هو أصل هذاالفن .

و تقسيم الأدب إلى النظم و النثر ليس إلا بالنظر إلى الصورة ، و أما بالنظر إلى المعنى فلا يتم تقسيمه الحقيقى بعد . و يؤيد رأينا هذا بيان معنى الشعر الذى فهمه قدماء العرب ، فكما يقول العلامـــة الطاف حسين حالى : « كان العرب يسمون كل من يلقى خطاباً بليغاً بارعاً فوق مستوى العامـــة شاعراً »[١] و فى الشعر الجاهلى القديم نجد كثيراً من المقطوعات و الأمثلة المرتجلة التى تمتاز و ترتفع عن مستوى الكلام العادى للعرب . و لذلك نرى أن قريشا حينما سمعت أسلوب القرآن البارع لم تحسبه كلام الله بل جعلت سمى النبى صلى الله عليه و سلم شاعراً ، مع أن توزن لم يكن ملتزماً به فى القرآن » .

١ـ مقدمة الشعر ص : ١٠٠ـ٣٠ (فى الاردية)

و فرّق « ملتن » بين الشعر و النثر بالحماس و الجد ، و هذا صحيح إلى حد ما و لكن لا يطمئن إليه بالكلية .

و قد جعل هازلت الشعر لسان الخيال و العواطف ، و من الحقيقة أيضاً أن قلب الانسانى ملتقى الأحاسيس المتنوعة ، فحينا يشعر يفرح و حينا يتألم و يحزن ، فحينما يمتلىء قلبه فرحاً يحب الحياة بجميع ألوانها و يسر بكل صغير كبير ، و حينما يضيق قلبه بالهم يتوحش من الحياة و تتناوب عليه عواطف الخوب و الرغبة و الغضب .

و الحقيقة أن بحال الشعر هو هذه الكيفية للقلب الانسانى ، فتجب مراعانها فى تقسيم أغراض الشعر حتى تتم تسميته كل غرض على حدة حسب تباين العواطف . فالشعراء إذا تغنوا فى عواطف الفرح تشكل غضبهم بشكل الهجاء و رغبتهم فى صورة المديح والشكر ، خوفهم فى صورة الاعتذار و الاستعطاف .

و من الأدباء من قسم الشعر أساساً إلى قسمين ، و هما المدح و الذم ، و جعل سائر الأقسام متعلقة بهما ، فالوصف و الرثاء و الفخر ، و التشبيب و الغزل و التشبيه و الاستعارة و المثل و الزهد و التقوى و الوعظ و النصح تدخل فى المدح . و غيرها من الأغراض تندرج تحت الهجاء[١] .

و موضوع المقال (أى المديح النبوى) يدخل فى قسم الأول و يعبر عنه بالتعريف و المدح .

و معظم هذا المديح بالعربية قد قيل بعد وفاة النبى صلى الله عليه و سلم

١- كتاب العمدة ج: ١ ص: ٧٨—٧٧ .

و نظراً إلى ذلك يمكن أن يسمى بالرثاء ، و لكن الأمر ليس كذلك لا فى العربية و لا فى الفارسية و الأردية و التركية ، و سبب ذلك ان هناك ميزة للنبى صلى الله عليه و سلم و صلحاء الأمة فيخاطبون بعد وفاتهم أيضاً بأسلوب الاحياء . ثم إن المؤمنين يعتقدون أنه عليه الصلاة و السلام أصل الحياة ، و أن الصالحين قد وهبوا حياة خالدة بفضله . و بجانب هذا فالمرثية تهدف إلى إبداء الحزن و بث الشكوى على وفاة رجل ، ولكن المديح النبوى يهدف إلى اعلان محاسن الدين و شمائل الرسول صلى الله عليـــه و سلم مع تقديم عواطف الاحترام و التكريم حتى يتقرب إلى الله و بناء على ذلك نسمى هذا النوع من الشعر مدحاً ، نعم فى شعراء المديح من نظم الأبيات فى وفاة النبى صلى الله عليـــه و سلم ، و يمكن أن يسمى هذا رثاء و لكن هذا التفريق يصح بعد الاطلاع على محتوى الشعر و مضمونه .

لوازم المـــديح :

من المعلوم أن عدد شعراء المديح كبير ، فكل صغير و كبير من الشعراء أسهم فى هذ المجال حباً للنبى صلى الله عليـــه و سلم ، و منهم الشعراء الذين ينشدون لعامة الناس ، و لكن الحقيقة أن هذا الموضوع ليس بحيث يتناوله كل من شاء بالتفكير و التخييل ، فان الشاعر يلاقى فى هذا المجال صعوبات و مشاكل ، فعليه ان يدقق فى اختيار الكلمات الملائمة للموضوع و أن يراعى جانب الخطاب و البيان و تفاصيل العقيدة و أسرارها و أن يلتزم جانب الصدق حتى لا يسلمه الخيال إلى الغلو فيخرج المديح من موضوعه . و قد رأينا أن الله تعالى قد اوضح لنا أنه من اسلمة الأدب إلى النبى صلى الله

عليه و سلم أن ترفع أصواتنا فوق صوته عليه السلام . فهذا المجال واسع و فى نفس الوقت ضيق ، فاما الأول فلأن مناقب الممدوح كلما كانت كثيرة كان الموضوع متسعاً أمام الشاعر و هو يتمكن من اعمال فكره و تخييله بدون أن يضطر إلى الغلو و الاغراق للاحادة و التحسين ، و حيث جازت مناقب الممدوح حدود المبالغة يفجر الخيال فى أسمى صورة عن البلوغ إليها . و شاعر المديح النبوى يسرح فى الأفلاك إذا تناول مناقبه صلى الله عليه و سلم بالتشرح و التوضيح ، و هو شاهد مكانته عليه السلام تاركاً الكواكب و النجوم وراءه ، فتكون الأفلاك مسرحا لخياله و يكون الممدوح مجلياً على العرش و الكرسى . و هكذا يتسع المجال امام الشاعر الذى يمدح النبى عليه السلام و فى نفس الوقت يرتفع عن مآخذ النقاد و يحتمى بمعتقداته من سهام نقدهم .

أما كونه ضيقاً فلا نه يصعب على المتخيلة مجاراة ذلك الغلو مع اتساع المجال والموضوع ، والشاعر يحتاج فى ذلك إلى مقدرة فألقى فان هذا المديح ليس عبارة عن قصة الحب و الغرام فيقول فيها كل شاعر ما يريد ، بل إنه مدح شخص لا يتقرب إليه بالغلو فى الثناء عليه و لا يقبل كلا ما يخلو من الصدق . ثم إنه يجب لفهم حياة الصدق والزكاء أن يصل الشاعر إلى حقيقة الصدق و الشعور و الزكاء و يتكيف بكيفياً تهما . و الحاصل أن فهم روح النبى صلى الله عليه و سلم و شرح مكانته يتطلبان العلم و الفضل و البصيرة و القدرة الشعرية ، و من المعلوم ان اجتماع مثل هذه الصفات فى رجل واحد عسير ، و بالتالى يتعسر القيام بمسؤلية المديح النبوى لفرد

واحد أو لشاعر واحد مهماً أوتى من الخيال و البديع الصريحة الفياضيـــة و الشعور المتحرك .

دوافع شعر المديح :

شعر المديح النبوى من مقدمات الشعر الدينى الذى يصدر عن العاطفة الدينية و الاخلاص فى الصدق و حبّ الرسول صلى الله عليه و سلم و لو قيل إن بداية الشعر الاسلامى بشعر المديح فكان أصح . و الحقيقـــة أن شعر المديح النبوى قد هيأ للأدب الاسلامى مجالاً واسعاً عظيماً ، فلننظر بالاجمال إلى دوافع هذا النوع من الشعر .

إن حب الله و رسوله مما يجب على المؤمن فى الاسلام و هذا يستفاد من الأحاديث التى وردت بهذا الصدد تؤكد المعنى .

« عن انس النبى صلى الله عليه وسلم قال : ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة لايمان ، من كان الله و رسوله احبّ إليه مما سواهما و أن يحب المرء لا يحب إلا لله ، و أن يكره أن يعود فى الكفر بعد إن انقذه الله منـــه كما يكره أن يقذف فى النار[١] » .

و هذا الحديث يعد مهماً جداً فى أميون الاسلام ، فان الحلاوة لا تمكن إلا بالايمان ، و الرغبة فى الطاعة لا تأتى إلا بالحلاوة . و الحب هو الذى يحمل على الايثار الذى لابد منه فى سبيل مرضاة الله ، و الطاعـــة فى الحقيقة هى عبارة عن الميل القلبى .

من دوافع الحب و الغرام ، الجمال ، و هو على نوعين : ظاهرى و باطنى

١- الصحيح للمسلم ج : ١ . ص : ٤٩ (مطبع اصح المطابع لكتاو ١٣٤٩) .

و هما متوفران فى شخصية حبيب الكونين ، فانه قد اعطى كمال الخلق الذى استجمع صور الجمال كلها . ثم ان الكمال الذى يستميل القلوب و يزيد فى الرغبة الطبيعية كان قد توفر فيه ، و حينما تقوى معرفة الحقيقة و الحق بحيث يشعر بها المؤمن مع كل من يسرى الحب النبوى فى عروقه و انفاسه ، و بفضلة يفوز بالصراط المستقيم و الشفاعة و السعادة و ينجو من نار جهنم و يكرم بالجنة و من الطبيعى أن يغلب هذا الحب على حب الوالدين و الأولاد و الأنفس و الأموال و هذا هو معنى الحديث الذى يقول : « لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب إليه من أهله و ماله و الناس أجمعين [١] .

و قد ورد فى حديث آخر :

« عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده و والده و الناس أجمعين [٢] » .

و بجانب هذا يعد الحديث الآتى دافعاً قوياً مهماً من دوافع أدب المديح ، و قد أوجب المديح النبوى فى بداية كل كلام منثور و منظوم و خطبة و مقال ، و هكذا تقيد الأدب بهذا القيد :

« كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله و الصلاة علىّ فهو اقطع أبتر من كل بركة ، اخرجه الزهاوى فى الأربعين والديامى فى سند الفردوس و فى سنده ضعف » .

١- الصحيح للمسلم ج: ١ ، ص: ٤٩ .

٢- الصحيح للمسلم ج: ١ ، ص: ٤٩ .

و بذلك نرى أن الأدب الاسلامى بنوعيه من النظم و النثر يبدأ جمعاً فى الحمد و المديح ، و معنى ذلك ان كل شاعر يدخل فى شعراء المديح النبوى نعم يفرق بينهم بأن البعض تناول المديح النبوى جرياً على العادة أو للتبرك به أو لتمهيد الكلام ، و بعضهم قد تناوله على اساس الحاسة الدينية و أكثر فيه ، و على هذا يمكن تقسيم شعراء المديح النبوى فى ثلاث طبقات : الأولى من جاء الحمد و المديح فى كلامهم توطئة و تمهيداً . و الثانية من يوجد فى كلامهم فله كبير من المديح بجانب الألوان الأخرى ، و الثالثة من جاء كلامه فله أوجله فى المديح .

أقسام المديح النبوى :

ان شعر المديح ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الذى قيل عقيدة و تبركا و جريا على العادة

و الثانى : الذى قيل مستقلاً و لتحقيق غرض

و الثالث : الذى قيل للاصلاح و هذا يندرج فى الحقيقة تحت القسم الثانى .

١ - المديح العادى :

يتضمن كل فن من فنون الشعر و النثر فى الأدب الاسلامى الحمد و المديح النبوى فكما أن الصلاة على النبى صلى الله عليه و سلم تجب على كل مسلم و لو مرة فى الحيوة فكذالك رأى كل شاعر و كاتب ان يدخل الحمد و المديح فى كلامه و قد سبق أن ذكرنا الحديث الذى ورد فى هذا الباب و بناء عليه قد اهتم الشعراء بالمديح و لو عادة . حتى إن الشعراء غير

المسلمين أيضاً قد قلدوا الشعراء المسلمين فى هذا و تكثر امثلة ذلك فى شعر الفارسى و الأردوى .

٢ - المديح المستقل (أو المقصود) :

إذا تعين لأمر تحدد و تحرك له الفكر فتنظم الجهود و تتسق ، و يتوفر الاخلاص و يظهر التاثير و تتدفق العواطف حماسا و تثور ، و لكن الفنان إذا خلا من التفكير المقصود تشرد ذهنه و تاه ، كما قيل فى كل « واد يهيمون » إنه يستميل طوب الناس بأنا شيده العذبة مؤقتاً و لكن مثل هذا الكلام ينشوش المشاء و يقلقه و يثبط الهم و يوحش الطبائع إن الشعر الهادف يمثل الحياة و عاطفته الخالدة تحركها و نغماته تتسرب إلى أعماق القلب و تحدث صداها بعد الوصول إلى القلوب و الخلود على الحياة تاركة آثارها و فى الحقيقة بصوت الحق و الصدق و مثل هذا الكلام يمثل « إن من البيان لسحر » من ناحيته و من ناحية أخرى يصدق عليه « إن من البيان لحكمة » .

و هكذا حينما يكون الشعر هادفا يعبر بكل نغمة من نغماته عن صورة الحياة التى يقصدها ، و يترك على الحياة تاثيراً عميقاً و يوقظ المواهب الخفية و يثير عواطف الجمال و يشغلها لبناء الحياة ، و كما ان الجمال الظاهرى يستميل القلوب فكذلك يتحول إلى معلم روحى وخلق فيغير الاقدار و الحقيقة أن هذه الوظيفة للشعر الهادف تستطيع أن تقضى على فوضى الحياة .

إن نظرية الفن و الحياة تعرض بصور شتى ، و لكن أصحاب هذه النظرية

يتفقون على أن الفن تفسير للحياة و تعبير عنها و لكن الحياة نفسها ما هى ؟ إن الاجابة على هذا السوال المهم المحير تحل نظرية الفن للحياة و لا يمكن فهم أسرار الحياة و الاحاطة بأهدافها و غايتها إلا إذا صح تفكيرنا حول قيم الحياة و معنى التزكيـــة و تصور و مستوى العدالة و كيفية السماح و غيرها من المسائل . و النظرة الحكيمة تحاول حلها بالعقل ، و لكن قصور الفهم الانسانى يحول دون الوصول إلى الحقيقة ، و من ناحية أخرى تعجز المحاولات الانسانيـة عن سد الخليج الذى يوجد بين الصور النظرية و العملية و يجب لهذا أن يكون اما منا نموذج للحياة الذى يلشف لنا الحياة نظرياً و يعطينا أسوة حسنة و يقول :

« هذا التصور للحياة صحيح من الناحية العملية أيضاً لما هو صحيح من الناحية النظرية » .

و لو جعلنا هدف الفن التعبير عن هذا الخلق العليم اظفرنا بموضوع صالح للبيان يسع جميع تفاصيل الحياة ، و هذا التعبير يتضمن الناحية الدينية و الخلقية و الروحيـــة و الاقتصادية و الاجتماعيـة و الدنيوية و الأخروية و الجمالية و الجلالية من نواحى الحياة و لو كان موضوع الفن الحياة فليكن حياة كاملة ، حياة تعجز أمام جمالها منازل الرقى و طموح النظر و التفكير و حينما يصير كمال الحياة هذا موضوعاً للشعر فلا يكون الشعر فى الحقيقة شعراً حتى يتهم بالخلو عن الهدف أو بالفوضى الفكرية .

و الحياة التى جعلها شعراء المديح النبوى موضوعاً لشعرهم تقدم أسوتها حلولا لشئون الحياه المتنوعة الطبيعيـــة منها و الفكرية و على سبيل المثال

يوصف شعر علامة الدكتور اقبال بالشعر الهادف و أن فنـــه منسجم مع الحياة . والحقيقة أن شعره هذا أيضاً يعبر عن الحقيقة التى نسميها بالحقيقة المحمدية و علامـــه اقبال قد عبر عن هذه الحياة بالرجل الذاتى ، و الرجل الكامل و الرجل المؤمن و الرجل العقير ، و بالعشق و العقل و الحلمة و ليس شعر العلامة اقبال إلا تمثيلاً لأسوة النبى صلى الله عليه و سلم الحسنـــة ، و هو يؤدى رسالة الحياة بالجمال الأدبى و الحكمى و بنغماتها الحية .

أما شعر المديح النبوى فقد كان فى البداية هادياً و لا شك ، و الشاعر الأول للبلاط النبوى الذى يصدى لمدح النبى صلى الله عليـــه و سلم بعد معرفة الصدق و الحق كان فى الحقيقة يرد على الاعداء ، و شعره كان تمثيلاً لأخلاق النبى صلى الله عليـــه و سلم تعاليمه مسوبا لعواطف الاخلاص و الحب .

قد فعل حسان رضى الله عنه بلسانه ما عجز عنه الخطباء ببيانهم الساحر و حيث لم ينجح محاولات الترغيب والتحريص نجح الشاعر بكلامه و حيث لم ينفع تضحيات المجاهـــدين نفع كلام الشاعر الحماسى الجميل التفكير . قد وضح سيدنا حسان بن ثابت رضى الله عنه غاية شعره فى المديح النبوى فقال :

هجوت محمـــدا فأجبت عنـــه و عنـــد الله فى ذاك الجزاء

و معنى ذلك أن غرض مديحه هو الذب عن الرسول صلى الله عليه و سلم و تبليغ تعاليمـــه و اظهار الاخلاص و الحب و رجاء المثوبة على ذلك عنـــد الله .

تطور الرثاء فى العصر الجاهلى

الدكتور عبد الجبار القاسمى *

الرثاء من اهم الأغراض الشعرية و اشدها وقعا فى النفس . إنه « احسن مناطق الشعر » كما قال أبو عبيدة معمر بن المثنى[1] : قد سئل احد الاعراب ما بال أفضل أشعاركم فى الرثاء ؟ فاجاب : لاننا نقولها و قلوبنا موجعة ، أى لأنها صادرة عن عاطفة حارة صادقة بعيدة عن التكلف[2] ، و فى العقد الفريد قال الاصمعى : قلتُ لاعرابى ، ما بال المراثى أشرف أشعاركم ؟ قال : لأننا نقولها و قلوبنا محترقة

الرثاء من الموضوعات البارزة فى شعرنا العربى ، إذ طالما بكى شعراءنا مَن رحلوا عن دنياهم و سبقوهم إلى الدار الآخرة ، و هو بكاء يتعمق فى القِدم منذ ان وجد الانسان و وجد امامه هذا المصير المحزون لأن الموت و الفناء مصير محتوم لابد أن يصير إليه كل كائن حيى ، و لكل أمة مراثيها و الأمة العربية من الأمم التى تحتفظ بتراث ضخم من المراثى . و هى تأخذ عندها ثلاثة ألوان هى الندب و التأبين و العزاء .

١ـ مقدمة كتاب التعازى و المراثى : أبو العباس ، محمد بن يزيد المعروف بالمبرد .

٢ـ المفيد فى الأدب العربى : جوزيف الهاشم ، أحمد أبو سعيد ، أحمد أبو حاقه ، ايليا الحاوى ص : ٤٥٨/١ .

التعريف اللغوى :

رثا ، يرثو رثواً ، باب نصر . بـكاه و عـدّد محاسنه ، رثى الميت باب ضرب ، يرثيـه ريثاً و رثاء و رثاية و رثاة و مرثية ، بـكاه و عـدّد محاسنه . كذا فى الثلاثى المزيد ، رثّى الميت و ترثاه مثل رثاه ، الرثاءة و الرثاية أى النـوّاحـــة .

المرثاة ما يُرثى به الميت من شعر و نحوه كالمرثية جمعه مراث ، كما يقال المراثى السبع من مختارات أشعار العرب [١] ، قال صاحب المنجد فى تحقيق الرثاء مثل ذلك .

رثى فلان فلانا يرثيه رثياً و مرثية ، إذ بـكاه بعد موته . فان مدحـه بعد موته قيل رثّاه يُرثّيـه ترثيـة و رثيتُ الميت رثياً و رثاء و مرثاة و مرثيـة ، و رثّيتُـه مدحته بعد الموت و بـكيته و رثوت الميت أيضاً إذ بـكيتَـه و عددت محاسنه . و كذلك إذا نظمتَ فيه شعراً [٢] .

الرثو ، قال ابن سيدة : هى الرثيثة من اللبن و الرثيثـة مهموز بدليل قولهم ، ثم نقل عن ابن السـكيت ، « قالت امرأة من العرب رثأتُ زوجى بأبيات و همزت .

قال الفراء : ربما خرجت بهم فصاحتهم إلى أن يهمزوا ما ليس بمهموز قالوا رثأت اليت و لبأت بالحج [٣] .

١- اقرب الموارد فى فصح العربية و الشوارد : سعيد الشرتونى ، ص : ٣٨٩ .

٢- لسان العرب : ابن منظور ج : ٣٠٩/٤ .

٣- تاج العروس : فيروز آبادى ص : ١٤٤ ،

التعريف الاصطلاحى :

الرثاء هو النواح و البكاء على الميت بالعبارات المشجيـــة و الألفاظ المحزنة التى تصدع القلوب القاسية و تذيب العيون الجامدة .

و عـرّف حنا الفاخورى الرثاء :

« إن الرثاء هو التعبير عن احساس الشاعر العميق بالحزن قبل الموتى و محاولة ذكراهم بتمجيدهم و بيان فضائلهم التى ماتت بموتهم ، مع التفكير فى القدر و قصور الناس أمامه و عبثه بهم و لعبه بحياتهم و موتهم [١] .

النـــدب :

الندب بكاء الأهل و الأقارب حين يعصف بهم الموت فيئن الشاعر و يتفجع إذ يشعر بلطمة مروعة تصوّب إلى قلبه ، فقد اصابه القدر فى ابنه أو فى أبيه أو فى أخيه و هو يترنّح من هول الاصابة ترنح الذبيح : فيبكى بالدموع الغزار ، و ينظم الأشعار يبث فيها قلبه و حرقته ، و قد ينظر فيرى الموت مُطِلاً نُصُبَ عينيـــه و هو ينحدر راغماً إلى جفرته و لا ناصر له و لا معين ، و يصيح ، و لا ينفعه صياحه ففم الهاوية يقترب منه و يوشك ان يلتقمـــه فيبكى و يلحن بكاءه على قيثارة شعره تلحيناً مشجياً كله ألام و حسرات .

التعريف اللغوى :

ندب باب ناصر يندب ندباً الميت ، بكاه و عدد محاسنـــه . الندبة

١- تاريخ الأدب العربى . حنا الفاخورى ص :٥٠٧ .

تعديد محاسن الميت[١] ، والشاعر لا يندب نفسه و أهله فحسب ، بل يندب أيضاً من يتنزلون منـــه منزلة النفس و الأهل ممن يحبهم و يؤثرهم . و مراثى الشيعة من خير الأمثلة التى تصور ذلك . إذ تجدهم يرسلون الدموع مدراراً كأنه لا يريد ان يجفّ ، و تسيل كلماتهم و أشعارهم المحزونة و كأنها تسيل من جروح لا ترقأ فى القلوب و الأفئـــدة ، و مثل مراثى الشيعة مراثى الدول و الاوطان حين تسقط مهيفة الجناح فى يد الأعداء ، فينوح عليها الشعراء مصورين محنتها الكبرى و كارثتها العظمى .

و قد عـــرف العرب منـــذ العصر الجاهلى المآتم حيث يجتمع النساء للصياح و العويل على الميت . و نجد النساء الندابات فى الجاهلية يؤلفن الأشعار التى يندبن بها موتاهم . فاصبح هناك محترفون و محترفات يعوّلون فى المآتم بأشعار تصنع لهم ، و الفرزدق مفتى مكة المكرمـــة المشهور فى العصر الاموى هو أهمّ من احترفوا صناعة الندب فى عصره . فكان الشعراء إذا مات شريف أو شريفة صنعوا له أبياتاً ينوح بها . و قالوا أنه كان يتفوّق تفوقاً ظاهراً على جميع الناحـــة و البكائين فى الحجاز ، لما امتاز به من صوت حزين يمتلىء بالأسى و السجى[٢] .

قال حنا الفاخورى فى كتابه « الجديد فى البحث الأدبى » :

« اما الندب فبكاء الأهل و الأقارب حين يُصعق بهم الموت . فيثن الشاعر و يتفجّع و يترنح من هول الاصابة ترنح الذبيح ، فيبكى

١- المنجد : معلوف الاب لويس ص : ٧٩٨ .

٢- الرثاء : الدكتور شوقى ضيف ص : ١٢ .

بالدموع الغزار ، وينظم الأشعار ، يبث فيها لوعة قلبه وحرقته [١] » .

فتصبح المرثية زمرة متواصلة و أنة كئيبة من الحزن و الألم الموجع أنها وليدة شعور صادق و قلب مفجوج و احساس عميق بالرزء الذى اصاب الشاعر فامتلأت به نفسه و نقلتـــه شعراً إلى نفس السامع يحدث فيها الاثر المولم و المشاركة فى اللوعة و التفجع ، و هذا النوع من الرثاء ينظمه الشاعر فى نسيب أو قريب ، أو صديق ، و هو الغالب على مراثى الجاهليـة و صدر الاسلام عند العرب . و قد اشتهر به الجاهلية لبيد برثاء أخيه أربد و المهلهل برثاء أخيـــه ، كليب ، و الخنساء برثا أخيها صخر ، و مثاله الموفق عند العباسيين ابن الرومى ، و من الأمثلة على ذلك قول أبى تمام فى رثاء ولده و أخيه بقصيدتين ، ترك فيهما طريقته المألوفة من تهويل المصاب و الفجيعة بشـكل مغالات تطبع شعره بالتـكلف الظاهر ليأخذ بالعاطفة الطبيعية الصادقة و المعانى القريبة المتناول التى نسمعها من كل أب فقد وحيده أو أخ يتفجع على أخيه بالاضافة إلى تصوير مولم لساعة الاحتضار ساعة الصراع مع الموت و ما يُرافقها من هُدوء حزين و لوعة مستـكينـة ، انها لذكرى تضغط على القلب فتعصره و تجعل صاحبه يتحول إلى هيـكل من الاوجاع حتى لـكأن كل جزء من جسمه قد حلّه جزء من سقم و حزن . قال فى ولده علىّ :

بُنىّ يا واحداً لبنينـا غادرتنى مفـرداً جزينـا
هون رزئى بـك الرزايا على فى الناس اجمعينـــا [٢]

١ـ الجديد فى البحث الأدبى : حنا الفاخورى ص : ٥٠٧ .

٢ـ المفيـــد فى الأدب العربى : جوزيف الهاشم . أحمـــد أبو سعيد ، أحمد أبو حاقه ، ايليا الحاوى ج : ١/٤٥٩ .

التـــابـــين :

(أبّنَ) الشيء : اقتفى اثره ، و الميت رثاه و اثنى عليه ، يقال : هو يقرظ الأحياء و يؤبن الأموات ، ابّنه : اثنى عليه بعد موته ، التأبين : الثناء على المرء بعد موته ، و منه حفلة التابين [١] .

اصل التابين الثناء على الشخص حيّاً أو ميتاً ، ثم اقتصر استخدامـــه على الموتى فقط . إذ كان من عادة العرب فى الجاهليـــة ان يقفوا على قبر الميت فيذكروا مناقبـــه و يعددوا فضائله و يشهروا محامده ، و شاع ذلك عندهم و دار بينهم ، و اصبح فى سننهم ، و عاداتهم ، و لو لم يقفوا على القبور كأنهم يريدون أن يحتفظوا بذكرى الميت على مر السنين [٢] .

و نحن نجده دائراً على السنة الرجال و النساء فهم جميعاً لا يكتفون بتصوير شعورهم الحزين بل يضيفون إليه إشادة بالميت و مناقبه ، كأنهم لا يبكونه فقط ، من اجل رابطة الدم التى تربطهم به و نزوله و رآء أستار و احجار . بل هم يبكون فيه نموذج المروءة كما يتمثلها أهل البادية يبكون فيـــه الكرم و الشجاعة و الوفاء . و حماية الجار و اغاثة الملهوف و الحلم و الدنقة و الحزم و ركوب الصعاب والسماحة و الفصاحة والسيادة و الشرف وكل ما يزين الرجل فى رأيهم من صفات و خلال . و كانما كان غرضهم من تابينهم ان يصوّروا تصويراً تاماً مدى الخسارة و المصيبة فى الفقيد ، و نرى هذا واضحاً فى تأبين الخنساء لاخويها صخر و معاوية فهى تندبهما

١- المنجد : معلوف الاب لويس ص : ٢ .

٢- الرثاء : الدكتور شوقى ضيف ص : ٥٤ .

بقلب محترق من وجهة و هى تؤبنهما لتصور فضائلهما و ترضح ما خسرته فيهما قبيلتهما .

الحياة و العادات الجاهلية و صورها فى المراثى :

و كان من عقائدهم ان القتيل لا يهدأ فى قبره حتى تصيب القبيلة من دم قاتليه ، و كانوا يحرّمون على أنفسهم الخمر و كل الملذات إلى أن يدركوا وترهم و دفعهم ذلك إلى أن يكبروا مصيبتهم فى القتيل و ان يسبغوا عليه من الخلال والمحامد ما يشعل الحرب و يؤجج نيرانها فلا تنطفىء أبداً .

و ما حياتهم فى الجاهلية الا سلسلة حروب و معارك طاحنة ، فكانوا لا يدفنون قتيلاً الا ليستعدوا لدفن أخيه و بكائه و تأبينه و الاشادة ببطولته و كرمه و ما اعطى لقبيلته من ماله و روحه . و لم يؤبنوا ابطالهم و قتلاهم فحسب ، بل ابّنوا أيضاً اشرافهم و ساداتهم و ان كانوا حتف انوفهم ، فخراً بهم و اعتزازاً ، و كانوا يجيرون على القبور ، فمن استعاذ بقبر سيد أو شريف حمل أهله مغرمه ، و كثيراً ما ذبحوا على اجداثهم ابلهم و خيلهم ، كانما يريدون أن يرضوا عظامهم ، و أن يعترفوا لهم بوفرة ما ذبحوا للناس من ابل و أنعام . و دائماً نجدهم يستسقون لهم السحاب و يشتنزلون لهم الغيث حتى تمرع قبورهم و تصبح رياضاً عاطرة [١] .

قال حنا الفاخورى فى كتابه « الجديد فى البحث الأدبى » :

« و ليس التأبين نواحا و لا نشيجا على هذا النحو أى الندب ، بل هو

١ـ الرثاء : الدكتور شوقى ضيف ص ٤٥ .

ادنى إلى الثناء منـــه إلى الحزن الخالص ، التأبين ضرب من التعاطف و التعـــاون الاجتماعى ، فالشاعر لا يعبّر عن حزنه هو و إنما يعبر عن حزن الجماعة و ما فقدته فى هذا الفرد المهم من أفرادها و لذلك يسجّل فضائله و يلح فى هذا التسجيل [١] » .

و كل ذلك احتفال بالميت و تمجيد و بقيا عليـــه و على ذكراه ، و كان اهمّ ما يُخلّده فى رائيهم هذه الأبيات من الشعر التى يصوغ فيها الشاعر محاسنه و مناقبه و كأنه يريد أن يحفرها فى الاذهان حفراً حتى لا تمحى على مر الزمان و حتى لا يصيبها شيء من زوال أو نسيان ، انها كل ما يملك ليبقى على الميت بينهم و ليجعله دائماً مأثلاً امامهم [٢] .

هـــذا النوع من المراثى يكون عادة فى العظماء و الأمراء الذين لهم فى مجتمعهم مكانة مرموقة ، أو الذين اعتاد الشاعر أن يتصل به و يمدحهم فيأتى رثاؤه ، لهم إلى الاشارة بالذكر و الشمائل اقرب منـــه إلى الندب و التفجع .

و التأبين يقترب من المديح لدرجة يصعب معها احياناً تبين ما ذا كانت الأبيات فى المديح أو فى الرثاء ، بيد ان براعة الشاعر تترك السامع فى شعور دائم بأن الكلام يدور على ميت [٣] ، كقصيدة أبى تمام فى محمد ابن حميد الطوسى :

١- الجديد فى البحث الأدبى : حنا الفاخورى ، ص : ٥٠٨ .

٢- الرثاء : الدكتور شوقى ضيف ص : ٥٥ .

٣- المفيد فى الأدب العربى : جوزيف الهاشم ، أحمد أبو سعيد و غيرهم ج : ٤٦٠/١ .

كذا فليجـــل الخطب و ليفدح الأمر
فليس لعين لم يغض ماؤهـا عـــذر
تـــوفيت الآمـــال بعـــد محمـــد
و اصبح فى شغل عن السفر السفر
و ما كان الآمال من قلّ ماله
و ذخرا لمن امسى و ليس له ذخـر
فتًى كلما فاضت عيون قبيـــله
دماً ، ضحكت عنه الأحاديث ، و الذكر[1]

العـــزاء :

عَزِىَ يَعزى عزاء ، من سمع ، صبر على ما نابه . عزّى تعزية ، سلاه ، تعازى القوم ، عز بعضهم بعضاً [2] .

اصـل العـزاء الصبر ، ثم اقتصر استعماله فى الصبر على كارثة الموت و ان يرضى مَن فقد عزيزاً بما فاجأه به القدر ، فتلك سنّة الكون ، تولد و تمضى فى الحياة سعـــداء أو اشقياء ، ثم تموت و كأن الناس راحلون و هم لا يفكون عقد رحلهم الاّ فى أجداثهم ، فهى قرارهم و هى غايتهم التى ينتهون إليها و لا مفرّ لهم منها و لا خلاص [3] .

وادن فليقبلوا الحياة كما هى ، ليقبلوها على انهـــا دار زوال و انتقال

١- ديوان أبى تمام ، حققه عبد الفتاح ص : ١٠ .
٢- المنجد : معلوف الاب لويس ص : ٥٠٤ .
٣- الرثاء : الدكتور شوقى ضيف ص : ٨٦ .

و ليست دار بقـاء و استمرار فـكل يلعب دورَه و يمضى و لا شىء يدوم . يقبل النهار المشرف ثم يدبر و يخرج الليل المظلم ، و ينعقد السحاب و تبـكى السماء ثم يضحوا الجـوّ و يصفو ، و الانسان ضعيف أمام هـذا التغير و التقلب ، لا يملك من امره و لا من حياته شيئاً فسرعان ما يُضعف به الموت فاذا هو محمول على آلة حَدباء ، انه عاجـز و ليس له الا ان يذعن اذعانا خالصاً ، اذعانا لا تشوبه مقاومة ، و هل من امل فى مقاومة ؟ و يرى نفسه كل يوم مشدوداً فى خيوط قوية بيد قاهرة تُدبر شئونه و قد تنتهى به إلى الاخفاق فى املة بل فى روحـه و وجوده ، فاذا هو لا يستطيع ان يستأنف نشاطاً و لا فوزاً و انتصاراً ، و هؤلاء الذين نحبّهم و نؤثرهم على أنفسنا من أباء و أبناء و اخوة ماذا نستطيع ان نقدم لهم حين تحين ساعتهم ؟

اننا مهما فـكرنا و قدرنا لن ندفع عنهم صيحة الموت و البغيضة ، و نحن نذرف الدموع لعزاقهم مدراراً و لـكن ما ذا تفيد الدموع ؟ و ما ذا يفيد الآسى[1] و الحزن ؟ انه لابد من ان يحتمل المـكروه و نتعزى[1] و نصبر على ما نزل بنا[1] .

و كان الشاعر يفـكر فى هذا كلّه فـكان يحزن و يبـكى و يلتاع و يعبر عن ذلك تعبيراً قوياً فى شعره ، ثم يعود إل نفسه فـيرى ان كل ما يصنعه لا يغنيه شيئاً ، لأن المحنة فى حقيقتها محنة كـبيرة . محنة الناس جميعاً . يمتحنون بهـا صباح مساء ، و لا يستطيعون لها رداً و لا دفعاً ، فلـترك البـكاء و الدموع و ليستلم للموت مخذولاً بل يائساً مقهوراً . فالناس كلـهم يموتون

١ـ الرثاء : الدكتور شوقى ضيف ص : ٨٦ .

و الناس كلهـــم يُصابون بحميم أو قريب و لعل ذلك ما جعلت الخنساء تقول :

و لولا كـــثرة الباكين حول
على اخوانهـــم لقتلت نفسى
و ما يبكون مثل اخى و لكن
أعزّى النفس عنـــه بالتأســـى
فـــلا و الله لا انســـاك حتـــى
أفارق مهجتـــى و يشِقّ رَمسى
فقـــد ودّعت يوم فـــراق صخرٍ
أبى حسّـــان لـذاتى و أُنســـى [١]

يتطلق فيها الشاعرة إلى أهل الفقيد فيدعوهم إلى الصبر و الجلد .

و مفروض ان المرثية لا تكون بحملها مجرد تعزية بل تستدعى أولاً ذكر الفقيد و التفجع لفقده و الثناء عليـــه . ثم التخلص إلى دعوة الأهل و المجتمع للعزاء و التأسى ، و كثيراً ما يمزج الشاعر بالتعزية ، اطراء الأمير الذى يمت إليه الميت بصلة ، فتكون المرثيـة جسرا بين ماض و مستقبل ، بين أمير مضى و آخر ، يرجو الشاعر ان يتقرب منه و يتصل به [٢] .

و نجد عند كثير من الجاهليين نزعة إلى الاستسلام للقدر ، فالموت كأس يذوقها الجميع ، لم يُسلَم منها احد ، لا ملك و لا سوقة ، و كم من

١- الديوان : الخنساء ، حققة الاب لويس شيخو ص : ٨٥ .

٢- المفيـــد فى الأدب العربى : جوزيف الهاشم و غيره ج : ١/٤٦٠ .

دولة دالتُ و جماعة بادت ، مثل قوم نوح و عاد و ثمود و مثل كسرى . و سابور ملكى الفرس و ملوك الروم ، و لعدى بن زيد العبادى شعر كثير فى ذلك ، يقول :

اين أهل الديار من قوم نوح
ثم عاد من بعـدهـــا و ثمود
اين كسرى ، كسرى الملوك انوشير
و ان ، ام اين قبـــله سابور
و بنـو الاصغر الـــكرام ملوك الر
وم ، لم يبـق منهـــم مـــذكـور[1]

و كان الجاهليون يثيرون هذه الافكار و ما يشبهها للتعزى عن الموت و بيان ان داعيه لا يُقلع ، و ان كل انسان إليه يرجع .

الرثاء بعـــد مجىء الاسلام :

ولما عمّت اضواء الاسلام فى النفوس أخذت تظهر معه نزعة جديدة فى العزاء تقوم على التسليم للّه و الرضاء بقضائه و الصبر على امتحـــانه احتساباً و طلباً للاجر و المثوبة من عنده ، و اقتداء بقوله سبحانه و تعالى :

« وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، اَلَّذِينَ إِذَا اَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَ إِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ »[2]

كانت العادة فى الجاهلية ان يعزى الشاعر نفسه إزاء مَن يفقد من أهله

١ـ نفس المرجع ص : ٤٦٠ .
٢ـ القرآن الكريم ، سورة البقرة .

و اشراف قبيلته ، فعزاه بوجه قبل كل شيء إلى نفسه ، ثم إلى من حوله ، و لما جاء الاسلام ، ونشأت طبقات الخلفاء و الولاة و أخذت تتألف حول كل خليفة و أمير أو حاكم كبير طبقة من الشعراء تقف نفسها على مديحه و تسليته إن اراد التسلية .

و دار ذلك أكثر ما دار حول فقد الابناء و افلاذ الاكباد . فكان الشاعر إذا مات ابن لخليفة يُبادر الى تخفيف بلواه فيه ، بأبيات تحدّ من لوعته و تكسر من فجيعته ، بما يذكر من ان الموت حتم واجب على الناس ، فكل نفس ذائقة الموت ، و كل انسان راحل إلى القبر . و قد يعرض الشعراء لمعان اجتماعيـة و خاصة معنى الشماتة فى المصيبة . فيتحدثون عن أن الموت لا يسلم منه احد ، و ان من لم يدركه اليوم فى عزيز له يدركه غداً ، فيشطر منه أصله أو فرعه ، و يفجع فى احبّته و تقرح جفونه فى أهل مودته و ألمّ ابن عبد الأعلى بهذا المعنى فى تعزيته لسليمان بن عبد الملك فى ولىّ عهده و اكبر ولده ايوب ، إذ يقول :

و لقد أقول لذى الشماتة إذ رأى
جزعى و من يذق الحوادث يجزع
أبشر فقد قرع الحوادث مروتى
و افرح بمروّتك التى لم تقرع
ان عشتَ تفجع بالاحبة كلهم
أو يفجعوا بك ان بهم لم تُفجع

ايوب من يشمت بموتك لم يُطق
عن نفســـه دفعاً ، و هل من مدفع [١]

معانى جديدة فى الرثاء :

و وقف الشعراء فى مراثى الخلفاء بأبنائهم عنـــد فكرة الاحتساب و طلب ما عند الله ، و أكثروا فى ذلك كما أكثروا فى الحديث عن خسارة الدين بموتهم و انهيار اركانه بفقدهم .

و فى ذلك يقول اشجع مغرياً هارون الرشيد فى ابن له مات شابًّا :

نقص من الدين و من اهـــله
نقص المنـــايا من بنى هاشم
قدمتَـــه فاصبر على فقـــده
إلى أبيـــه و أبى القـــاسـم

و هو يريد بأبى القاسم الرسول عليـــه السلام ، و يقول له انه فى ميزانك يوم القيامـــة ، و قد قدمتَه فلا يجزع ، و اصبر حتى يكتب لك فى باقياتك الصالحات [٢] .

و معنى ثانٍ فى هذا العزاء ، كأن الشاعر يقول ان الناس فداء هذا الخلال ، و ليس بينهم الا من يفدى الراحل الكريم ، و من هذا اللون قول أبى تمام فى ابنين لعبد الله بن طاهر صاحب خراسان لعهد المامون ، و كانا ماتا صغيرين فى يوم واحد :

١- كتاب التعازى و المراثى ، المبرد ص : ٢٣٧ .
٢- الرثاء : الدكتور شوقى ضيف ص ٩٠ .

نجمان شاء الله الا يطلعا الا ارتداد الطرف حتى يأفلا
ان الفجيعة بالرياض نوافيراً لاجل منها بالرياض ذوابلا
لو ينسان لكان هذا غارباً للكرمات و كان هذا كاملا[1]

و العزاء فى الآبناء كثير ، اما البنات فيندر العزاء فيهن و خاصة فى العصور الأولى . وكان هذا اثر من آثار الجاهلية الذين يقول فيهم القرآن الكريم :

« وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدَهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجهُهُ مُسوَدّاً وَ هُوَ كَظِيمٌ »[2] .

الأفكار الجاهلية و المرأة بمنظورها فى الرثاء :

و من الخلفاء الذين حزنوا حزناً شديداً فقد احدى بناتهم الخليفة المهدى و ممن عزاه فيها أبو العتاهية و هذا بعض عزائه .

كأن كل نعيم انت ذائقه
من لذة العيش يحكى لمعة الآل
لا تلعبن بك الدنيا و انت ترى
ما شئت من عبر فيها و امثال
ما حيلة الموت الا كل صالحة
او لا فما حيلة فيه لمحتال[3]

١- ديوان أبو تمام ، ص: ١٠ .
٢- القرآن الكريم .
٣- الديوان : أبو العتاهية ص: ٦٨٦ .

و عزى البحترى احد بنى حميد المشهورين بالشجاعة و البطولة لعصره فى ابنـة له ماتت ، و من الغريب انه لم يجد باباً يدخله إلى عزائه فيها الا ما كان يستشعره العرب فى بناتهم ، فقد مضى يواسيه على هذا النحو :

الآسى واجب عـلى الحـــرّ اما
نيـــة حـــرّة و امـــا ريـــاء
أبتـكى من لا ينـازل بالســـد
يف مشيحـــاً و لا يهُـرُّ اللـــواء
و الفتـى من راى القبـور لمن طا
ب به من بناتـــه اكـفـــاء
و تلفت إلى القبـــائـل فانظـــر
أمهـــات ينسبن ام أبـاء
و لعمـرى ما العجـز عنـــدى الا
ان تبيت الرجال تبـكى النساء [1]

فهو يحمد له موت ابنتـه ، و ان كان القبر كـفئها ، و يأخذ فى تعداد مساوىء المرأة فى رأيه ، فهـى لا تنازل الابطال . و قد تلد الاعـداء و هى تنقل المال الموروث من بيت أبيها إلى الاقاصى الغرباء و الحق ان العزاء هنا يتحول إلى ما يشبه هجاء المرأة و هى على كل حال نظرة نستمد من القديم .

العزاء و التهنئـة :

لم نتحدث عن العزاء فى الاباء و هو كـثير ، غير اننا نقف منـه عند

١ـ الديوان : البحترى ص : ٦

موضوع طريف ، و ذلك ان الخلفاء و السلاطين كانوا يتوارثون دُوَلهم و اماراتهم . فكان الشاعر يقوم بين يدى الخليفة أو السلطان الجديد يُعزّيه فى أبيه و يهنئه بحكومته و دولته وما انتهى إليه من خلافة أو امارة .

و أول من فتق هذا الموضوع و اظهر براعة فيه عبد الله بن همام السلولى ، و ذلك ان معاوية توفى و خلفه ابنه يزيد . فلم يقدم احد على تعزيته لدقة الموقف و صعوبته ، و ما زالوا كذلك حتى فتح لهم ابن همام باب الكلام ، فقال .

إصبر يزيد فقد فارقت ذامتة
و اشكر حباء الذى بالملك حاباكا
لا رزء أعظم فى الأقوام قد علموا
مما رزئت و لا عقبى كعقباكا
اصبحت راعى هذا الخلق كلهم
فانت ترعاهم و الله يرعاكا
و فى معاوية الباقى لنا خلف
إذا بقيت فلانسمع بمنعاكا [1]

و الأبيات فيها براعة و فيها دقة بعيدة فى الاحساس ، و لطف ورقة فى الشعور ، و ممن وقف هذا الموقف الدقيق و احسن فيه ، بل كاد يقلب لحظته الحزينة إلى لحظة سرور و فرح ، أبو الشيص الشاعر العباسى فانه قام بين الامين الخليفة العباسى بعد وفاة أبيه هارون الرشيد فقال :

١ـ الشعر و الشعراء : ابن قتيبة الدينورى ص : ٤٤٦ .

جـرتَ جوار بالسغـد والنحس

فنحن فى وحشـة و أنـس

العـين تبـكى و السن ضاحـكة

فنحن فى ماتـم و فى عـرس

يضحـكنا القائـم الأمين و تب

ـكـينـا وفاة الرشيـد بالامس

بدران ، بدرٌ اضحى ببغداد فى الـ

خلد و بدر بطـوس فى الرمس[1]

و تعـبّر هذه الأبيات خير تعبير عن فرحـة الشعراء بالأمين . إذ كان محبوباً منهم ، قريباً إلى نفوسهم .

و لما توفى المعتصم و خلفه ابنـه الواثق تقدم إليـه أبو تمام يعزيه و يهنئـه بقصيدة طويـلة ، افتتحها بالحزن على الراحل و الاشادة بمناقبـه و محامده و ما زال يدور فى هذين المعنيين حتـى قال :

ما دام هارون الخليفـة ، فالهـدى

فى غبطـة موصـولة بـدوام

لله أىّ حيـاة انبعثت لنـا

يوم الخميس و بعـد أىّ حِمـام

تلك الرزيّـة لا رزيّـة مثلهـا

و القسم ليس كسائر الأقسـام

١- الأغانى .

ما ان راى الأقوام شمساً قبلها
افلت فلم تعقبهم بظلام
اكرم بيومهم الذى ملكتهم
فى صدره و بعامهم من عام[١]

و استطرد فى مدح الواثق بعد ذلك .

و على هذه الشاكلة أخذ الشعراء يصنعون فى العزاء و التهنئة قصائد يلمون فيها بفضائل السابق و الاحق ، و يقولون ان ميزان الدولة و الأمة لن يميل إذ تولته يد عادلة ، بل ان هذا الخليفة الجديد ارسلته العناية الالهية لتجبر به الأمة و يتم لها صلاحها و استقامتها و كل هذه براعات تفنن الشعراء فى اخراجها و تصويرها ، حتى يقلبوا الحزن مسرة والبئوس نعيماً . فاذا كان اليوم قد استهل عابساً مكفهراً فانه انفرط مستبشراً مبتهجاً : انه يوم ماتم و عرس و شقاء و سعادة ، و ظلام و ضياء ، و الضياء هو الذى يسود و يشرف فى جنبات الدولة و الامة كما يشرف النها .

و الحق ان شعراءنا اجادوا فى هذا الموقف ، و استوفوا فيه حظوظاً لا بأس بها من القدرة و المهارة[٢] .

النزعة الحكمية :

يكثر فيها الشاعر من التحدث عن الحياة و الموت ، و الدنيا و الآخرة و فلسفة الفناء البقاء ، على فيض من التأملات العقلية و الاعتبارات النفسية

١- ديوان أبو تمام ، ص: ٢٠٩ .

٢- الرثاء : الدكتور شوقى ضيف ص ٩٩ .

و الانسانية ، دارت هذه المعانى فى كثير من قصائد العزاء . إذ كان من يبكى ميتاً أو يعزى فيه يعرض للحياة و انها زائلة ، و ان الموت نهاية كل شخص ، و إن على الناس ان يفكروا دائماً فى هـذا المصير الذى ينتظرهم ، و ان يتجهزوا له و يعدّو زادهم قبل ان تأزف الازفة و تحل الكارثة و كارثة مقررة لا مفرّ منها و لا محيص [١] .

و كانت هـذه الافكار تُمرّ بمخيلة الشاعر الجاهلى و كان يَلُمّ بها و لكن فى سذاجة و بساطة تلائم حياته ، كما قال أبو ذؤيب الهذلى :

و إذا المنيـــة أنشبت اظفارهـا
ألفيت كل تميمـــة لا تنفـع
و النفس راغبـــة إذا رغبتهـــا
و إذا ترد إلى قليـــل تقنـــع [٢]

و قال المهلهل فى هذا المعنى :

يعيش المرء عند بنى أبيـــه
و يوشك ان يصير بحيث صاروا
أرى طول الحيـــاة و قد تولى
كما قد يسلُبُ الشىء المصـــار [٣]

١- المفيـــد فى الأدب العربى : جوزيف الهاشم و غيره ص : ٤٦٠ .

٢- ديوان الهزليين ص : ٣ .

٣- المفيد فى الأدب العربى : جوزيف الهاشم و غيره ج : ٤٦١/١ .

و قال لبيد بن ربيعة فى اخيه أربد :

و ما المرء الا كالشهاب وضوئه
يحور رماداً بعد اذ هو ساطع
و ما المال و الاهلون الا ودائع
و لابد يوماً ان ترد الودائع
اليس ورائى ان تراخت منيتى
لزوم العصا تحنى عليها الاصابع [١]

و أخذت هذه الافكار بالاشتداد بعد ظهور الاسلام و ارتفاع الناس بابصارهم إلى الحياة الثانية و ما ينتظرهم فيها من سعادة ، ثم عمقت مع العصر العباسى و اتساع أفاق العلم و الفلسفة و فهم الحياة و ما قره العرب عند الأمم الأجنبية من حكم و آراء فلسفية [٢] ، و أبو العتاهية الشاعر العباسى أول من بسط الحديث فى الموت و الحياة . و ساعده فى ذلك انه ساق شعره فى ميادين الزهد و الوعظ . و اتخذ من الموت اساساً لتنفير الناس من الحياة و بيان ان نعيمها لا قيمة له وكذلك كل ما يتصل بها و كل سيموتُ لو عُمِّر ما عمر نوح ، فالموت هو الغاية والنهاية ، ويقول فى بعض من رثائه :

لقد كنت اغدو إلى قصره
و قد صرتُ اغدو إلى قبره
اتته المنية مفتالة
رويدا ، تخلّل من ستره

١- الديوان : لبيد بن ربيعة العمرى ص : ١٧٠ .
٢- المفيد فى الأدب العربى : جوزيف الهاشم و غيره ج : ٤٦١/١ .

فـلم تغن اجنـــاده حـولـــة

و لا المـزمعـون عـلى نصره

و خـلى القصور لمن شادهـــا

و حـلّ من القـــبر فى قعـره [١]

و كان المرثيـــة تتحول عند أبى العتاهيـة إلى عظة ، يتخذ فيها العبرة والمثل من الموت ، فالناس ولدوا للموت ، و كل ما يبنونه من قصور يؤول إلى حزاب ، و كل ما يتخذون من عز الدنيا يؤول إلى ذل القـبر و وحشتـــه ، و ما نحن ندفن بأيدينا مَن نحبهم و نلق بهم وراء الـتراب و الاحجار .

و ما يزال الشعراء بعد أبى العتاهية يشـدّون فى قيثارة شعرهم هذا الوتر حـين يرثون ، و هذه الافـكار و المعانى الدائرة حول الحياة والموت و الخلود التـى تناولها أبو العتاهيـــة ، تعلق بها شعراء الرثاء فى الأقطـــار الاسلامية المختلفة ، فايـنماوليتَ وجهك رأيت أسرابا منها فى رثاء الشعراء . إذ أعجبوا بها إعجاباً لا حد له ، فذهبوا يطوفون حولها .

و إذا كان النوع الأول من الرثاء أى الندب و التفجع ، أدلُّ على صدق العاطفة و شدة الفجيعـــة و حرارة البـكاء . فالنوع الأخير ادل على اختبار الحياة و سمو النفس و قوة الارادة .

١ـ الديوان : أبو العتاهية ص : ١٨٢ .